صنام ميت

رواية

موهوب رفيق

ماستر

منام ميت

روايـة

موهوب رفيق

الغلاف

The Naval Battle of Navarino (1827)

By:Ambroise Louis Garneray

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدارماسترللنشر

رقم الإيداع/١١٥٨٨/٢٠٢٢م

ISBN: 978-977-6884-09-0

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠٢٢م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ +2 0128 730 3637

الإهـــــداء

إلى الذين أحبهم..
والذين توقعوا أو تمنوا فشلي ..
إلى كل من سايرخطو اتي إلى هذا العالم الجديد

منام ميت

قالوا نقتلوك وفي بير نغبروك، قلتلهم
أنا شجرة حب الملوك ولي يحب
الشوك يدناليا.

بينما كنت جالسًا في وقت الظهيرة، على شاهد قبر بمقبرة القطار، حيث يدفن البرانية والزنوج.. فاجأني النوم، ثم استيقظتُ مفجوعًا والعرق يتصبب من جبيني من هول ما شاهدتُ في منامي... هل سيحدث في الواقع؟... هذا من ثامن المستحيلات.. قلتُها في قلبي وشريط البؤس يمر بين عينيي، بداية من طفولتي التي قضيتها في قسنطينة، هناك تربيت في كوخ خالتي الطاووس، مربيتي، هروبًا من وباء الطاعون الذي حل بمدينة الجزائر، كانت أجساد الموتى العراة تتراءى لي من بعيد كأنها حيوانات مفترسة تريد الانقضاض عليا وتطاردني في أزقةٍ ضيقة، وكان هناك صندوقٌ كبيرٌ كأنه كنز، فلما فتحته وجدت فيه جماجم بشرية وحيوانية وهياكل عظمية، وطواحين ورماد أسود ورائحة العفن المنبعثة من جثث جنود دفنتهم بالجملة في عام المجاعة، وعند الاستيقاظ المفجع بدأت أتحسس جسدي المتعَب من غسل الموتى وحفر القبور حتى أني أحسست بألمٍ شديد في رقبتي، ولم أكن أدري أن الأقدار حكمت أن يمر السيف من مكان ألمي فيرديني قتيلًا في قصر السلطان بالجنينة بأعالي العاصمة، ويعلق رأسي في المكان الذي عُلِّق فيه رأس سيدي منصور المحقور في قاع السور.

لقد ظننت أن الخبز اليابس وبعض الحليب الرائب والقديد

فعل مفعوله في بطني، فأصبحت أهلوس في منامي، إذ رأيت نفسي أختنق بثعبان أصلع حتى الموت وأنا جالس على كرسي الداي الفاخر في قصر الجنينة بالقصبة وعلى جانبي خادمان برؤوس ذئاب تتدلى من فمهما دماء ولعاب، ويصدر منهما صوت الموت والقبور قبل أن يلتف السيف على رقبتي.. انتفضتُ من فراشي وأنا أصرخ ليس خوفًا من الثعبان وإنما لجلوسي في مقام ليس من مقامي.. فأنا أرى في نفسي وضيعًا بما أني وُلدت في حمام النساء بأحد أحياء القصبة العتيقة، مجهول النسب، لا يُعرَف لي لا أصل ولا فصل، أعملُ منتقلًا بين القصر وأحد البيوت القديمة في أزقة القصبة، أغسل بعض أغراضهم وغسالًا للموتى في كثير من الأحايين، مأكلي من الزردات التي تُقام في ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، عالي المقام ورفيع الشان، الله يحفظنا بكرامته.

وبسقوط رأسي، زادت عجلة الزمن في سرعتها، إذ خلال أربعة أشهر حكمت فيها بعدما كنت غسالًا للموتى في الجزائر، وقَّعَت فرنسا وروسيا القيصرية اتفاقًا سريًا يقضي بتوحيد صفوفهما ومواجهة سلطة الأسطول الجزائري في البحر الأبيض المتوسط.

وقبيل عهدي، راسل الرجل القصير نابليون بونابرت، الداي مصطفى باشا مهددًا متوعدًا، بعد قضية الراهبات وخاصة «ماما بينات»، ثم أرسل الجاسوس ايف بوتان الذي

طاف الجزائر من شرقها إلى غربها وقام بدراسة طبوغرافية عن جغرافيا الجزائر، مستعينًا ببعض العائلات اليهودية كعائلات بن زاحوط وبكري وبوشناق وبوشعرة، وأوصى بالدخول من سيدي فرج لاحتلال الجزائر، وفي عهدي انفرط عقد البلاد وانفلتت الأمور وعجزت الخزينة عن دفع رواتب الجيش، فاستباح الانكشاريون مدينة الجزائر وعاثوا فيها خرابًا وفسادًا.

إذ تروي كتب التاريخ أن مجموعة من أعضاء الديوان وصلوا إلى طريقٍ مسدود في ما بينهم وعجزوا عن إيجاد داي للجزائربعد مقتل الداي أحمد بطريقة بشعة، وحين لم يتمكن أي طرف من حسم الصراع، قرروا اللجوء للعبة بسيطة، مستلهمة من حكاية قريش في حلف الفضول وهي أن ينتخبوا أول الداخلين للقاعة، فكان علي الغسال.. غسال الموتى أو غسال «شوالق» عند البعض.

وتقول بعض الروايات إني سُميتُ بالغسَّال لكثرة ما سفكت من الدماء - وتقول رويات أخرى - سميتُ بذلك لأني ولدت في حمام بعد اغتصاب أمي، وآخرون قالوا إني غسال «التشوالق»، والحقيقة تقول إني سميت بالغسال لأني كنت غسال الموتى في قصر الداي مصطفى، ثم أحمد.

وهكذا قامرت مجموعة من الانكشاريين بمصير الجزائر

وولت أمرها لغسال الموتى. ورغم أن فترة حكمي لم تتجاوز بضعة أشهر، إلا أنها فترة عبَّرت بجلاء عن العبث في اختيار الحُكام من كناس إلى غسال الموتى، إلى داي يُقتَل في بيت الوضوء، وآخر بالطاعون.. إنها بداية فتح الباب لفرنسا التي وصلت بخيلها وسُفنها وبارودها بفضل دعم اليهود المستمر في السر والعلن.

«زُنوج القصبة الدار.. محرمة حرير وشاشية عقل العيار.. الحومة النايرة، عازفة لحون من لوتار، ميزان من جلد الحوت وزنوج شباح الدار».

كنا في شهر أفريل في قاع قصبة الجزائر المحروسة.. الجو كان متقلبًا في الصباح بارد جدًا وفي المساء حرارة لا تطاق وزخات المطر نظفت أزقة المحروسة... اليوم كنتُ أجهز نفسي مع أقراني من أولاد الحومة لحضور احتفالية يقيمها الزنوج في الشهر نفسه من كل سنة، احتفالًا بعيد الفول أو «عِيدْ سِيدِي بِلاَلْ»، ويتوافق مع موسم جَنْيِ محاصيل الفول ويحضرها أغلب طيابات الحمام والبساكرة حمالي الماء، والميزابيون والجواجلة صُناع الخبز والرغيف، وبعض الحمالين من باب السردين وكثير من أطفال الكتاتيب، ممن يدرسون في ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، رفيع الشان والجاه.

كانت هوايتي المفضلة في هذه المناسبة هي الجري وراء الثور المزين بالأغطية الزاهية الألوان وبالورود الحمراء

والبيضاء والصفراء المنثورة على ظهره تحت إيقاعات الطُّبُول و«الصّْنُوجْ»، حيث ألتقط بعضها ومن النقود التي يقذفها المارة عليه، ويُجبر منظموا الحفل الثور الهائج على التجول من قاع السور إلى غاية آخر باب من المدينة في الجهة الشرقية عند ساحة الربط، وسط أهازيج وطبول فرقة بابا سالم التي عادة ما تجوب أزقة القصبة في «العشور» والمواسم الدينية، المولد النبوي وعاشوراء وغيرها، وكانوا يلبسون جلابية مغربية فيها خطوطًا بيضاء وحمراء ويحملون طربوشًا أحمر تنبعث منه خيوط سوداء تتراقص مع صاحبها في كل اتجاه وتنبعث منهم رائحة المسك والبخور، وكان الأطفال يتحلقون حول أحدهم وهو يقرع في الطبل والقرقابو وهم يصفقون ويقفزون في كل اتجاه، وتكتمل طقوسُ عيد الفُول بِزيارة عين سيدي يَعْقُوب التي كانت تقع قرب ساحل البحر، وهي عَينٌ شعبيةٌ اشتهرتْ بـ«السَّبْع عْيُونْ» أو «عِينْ الجْنُونْ» وذلك لتضمّنها لِسَبْعَةِ عُيون، حسب الروايات الشعبية، تتمثل في: العين الكَحْلَة، العين البيْضاء، العين الخضراء، العين الصفراء، العين الحمراء، عين لوْن الفُول وعين «أوْلاَدْ سَرْغُو»، كانت مدينتنا تشع بالألوان في كل شيء، في الاحتفالات في الأبواب والنوافذ، وفي الأسواق والأضرحة، إنها ألوان البهجة،

لقد وجد الشبان من أقراني المناسبة فرصة لأكل اللحم والدجاج، حيث استبدل في السنوات الأخيرة الثور بمليون دجاجة تُذبح في هذا الموسم وموسم آخر يدعى موسم سيدي

باهان الكبير، بالإضافة إلى الغسل مع الزنوج في عين الجنون أو السبع عيون الذين يرغبون في نيل رضا الكاهن الأكبر، وكان يبدو ضخمًا، أسود البشرة بلحية كثة بيضاء، لا يظهر إلا في نهاية الحفل وهو يوزع بعض الحروز على المريدين والمارة والأطفال والكبار والنساء تعبيرًا عن سعادته بمشاركتهم في الحفل.

كان نصيبي حرزًا مطرزًا بقماش أخضر، فضولي دفعني لأن أفتحه، فوجدت فيه خربشات غير مفهومة مكتوبة بالحبر المائي، وبه بعض الرمل قيل إنه للبركة، استغربت ذلك ورميته دون أن يلحظني أحد، فقد كانت رائحته نتنة تشبه رائحة البول، تساءلت عن مصدر البركة في مثل هذه القذارة.

بعد الانتهاء من طقوس الذبح عند صلاة المغرب، يتوجه الجميع إلى العين لملء مائها في القِرَب ومختلف الأواني للتبرُّك به لشيوعِ الاعتقاد بقداسته في مثل هذه المناسبة، خاصةً في أعقاب تقديم القربان والذبيحة للبهان الأكبر وهو الزعيم الروحي للزنوج. وتُضْرَبُ الخِيَمُ بألوانٍ متنوعة وزاهية، يغلبُ عليها اللونُ الأحمر، على طول محيط موقع الاحتفال الذي يتخذ أشكالا مهرجانية جماهيرية مثيرة، نالت اهتمام الكثير من الأوربيين وكل الزائرين من التونسيين والمغاربة وأهل الصحراء الذين يتوافدون في الصيف. وتُقام في هذا المقام المطابخ، فتُشوى الطيور والدجاج على الهواء الطلق والمقاهي لينتهي الحفل بعد ساعات طويلة من الأكل والشرب والغناء والرقص

والمرح على الإيقاعات الإفريقية الزنجي و القرقابو، ويكون أكثر المستفيدين منه هم الخدم والمتشردون والمتسولون، وأصحاب العاهات من ضحايا الحروب والجهاد البحري.

أكثر الأشياء التي تستهويني في هذا الاحتفال بعد الأكل، هو مشاهدة رقصة الزنجيات، فكنت أتمعن في متابعة حركاتهن بخبث كبير، فقد كان الاحتفال فرصة لي لمشاهدة نساء شبه عاريات يتطايرن فرحًا من الهروب من خدمة البيوت وتنظيف المواسير... اقتربت مني إحداهن وكانت كما أشتهي، ممتلئة الجسم، شفتيها كأنها حبات الكرز، أسنانها كحبات اللؤلؤ، عيناها زرقاوتان زرقة البحر والسماء، فطبعت على رقبتي قبلة هامسة وأضافت غمزة في إشارة أن أتبعها وكانت فائقة الجمال، سوداء البشرة، لاحظت أن أيديها تتجاوز الأرض فأوجست منها خيفة، خاصة أني شربت من عين الجنية.. وبينما كنت أفرك عيني من هول ما شاهدت، سحبتني إليها في زاوية من أزقة القصبة السفلى المظلمة، وهنا ظننت أني سأشفي غرائزي فيها وأنها ستشبعني قُبَلًا وأحضانًا وأنها تريد لقاءً غراميًا سريًا، لكني تفاجأت في الظلمة بعشرات الأيدي تتخطفني بين لكمة وضربة إلى الوجه والرأس، أردتني صريعًا ومخضبًا في دمائي، وقد سَرَقت مني بعض الأكياس جمعتُ فيها بعض الأوقيات التي تساقطت في طريق الاحتفال وقطعًا من الدجاج كنتُ سأفطر بها في اليوم الموالي.

لا أحد انتبه إلى حالي، فالكل محتفل، حتى الكلاب أعلنت هدنة مؤقتة مع القطط، إذ كانت منشغلة بأكل بقايا الدجاج في كومة الزبل أمام أحد الأزقة، ليس بعيدًا عن مسجد كتشاوة وأمام ساحة العبيد.. أما الزنجية رغم أنها اختفت عن الحفل وزحمته، كنت أرى شبحها في كل مكان على نافذة قصر خداوج في شراع السفن الراسية في الميناء وفي كل مكان، وضحكاتها تكاد تصم أذناي، و أنا أضع يدي من شدة الألم والصخب، أيقظني من الأرض شيخ بلحية بيضاء وبرنوس أبيض، رائحته مسك، مكحل العينين، حامل في يد مسبحة وفي الأخرى مصحفًا صغيرًا.. في أول نظرة ظننت أنه ملك الموت جاء يأخذ روحي بعدما تهالكت قواي.. ولم يبق لي حيل وقوة، فاستسلمت إلى يديه وهو يتحسس جروحي متألمًا ومتحسرًا على هذا الشاب اليافع الذي كنت، فأمر الشيخ خدمه بحملي على ظهور الحمير إلى أعالي العاصمة، حيث يقيم، وهناك في قصره استسلمت إلى نومٍ عميقٍ في فراشٍ ناعم، فلطالما بِتُ في الشوارع والإسطبلات بين روث البقر والأحصنة، حتى أنني لم أنم جيدًا، ربما لأنني وجه «الميزيرية» والبؤس ولديا «التابعة» في كل شيء، والدنيا عاكسة بل عابسة في وجهي، ولحظات الفرح تمر كالبرق، لا أكاد أتلذذ بها حتى ينقضي الوقت كأنها سراب فتصبح ذكرى تنسيني في الليالي الحالكات وما أكثرها، فقد استبد بنا الطاعون تارة، وتارة أخرى الزلازل والمجاعة، في بلد كانت خيراته كثيرة، لكن حكامه فاقدي الرأي السديد.

أصلك أصلك وما ينفع غير الصح، مولاة النية الصافية عليها ربي يفتح، أطول ولا تقصر يجيها السعد والربح.

ليلة المعركة

في تلك الليلة، استيقظت على ضوء مشع في ليلة كان القمر فيها بدرًا في كل مكان، خرج الناس حينها، بعضهم كان شكله مضحكًا جدا، شيوخ ببطون ورؤوس مكشوفة، ونساء احتللن النو افذ لإيجاد إجابة عن سؤالهن من أين أتى هذا الضوء.. فلأول مرة في المحروسة يُرى الناس بهذا الشكل، إذ كانت كل الأزقة مظلمة فإذا حل الليل والظلام، احتل اللصوص المكان.. هل يعقل أن الجنية السوداء يصدر منها ضوء أبيض ونورًا مشعًا كهذا النور؟ هذا ما تبادر إلى ذهني لأول وهلة.. ولما لم يجد الناس جو ابًا أغلقوا أبواب بيوتهم وعادوا أدراجهم و انسحبوا وهم يجرون ذيول الخيبة وراءهم.. هكذا أخبرني ذلك الخادم أحمد الذي كلف من طرف الشيخ برعايتي والتكفل بطلباتي.. وقبل أن يكمل حديثه عن ذلك الضوء وحديث الناس، سألته عن الشيخ وماذا حدث لي.. فقال ذلك هو الشيخ القنيعي، شيخ غني جدًا معروف بكرمه، فهو يتجول بين أزقة القصبة السفلى عند الفجر ويعطي كل سائل حاجته.. يستمع عن طريق خدمه وحاشيته إلى الفقراء والمعوزين وما أكثرهم في ساحة العبيد، فيعطيهم من ماله ولا يسأل عن ذلك منصبًا أو جاهًا، وكثير من الناس لا يعرف شكله أو صفته وربما يكون بينهم ويتحدثون عنه، لكنه يتكتم عن الحديث عن نفسه.. و أنت هنا بمدينة

سيدي عبد الرحمن وتحديدًا بالقصبة بحي يعرف بُـ «خْرَب بن ميمون» بالقصبة السفلى بين حَيّيْ سوق الجمعة ولاَلاَّهُم..

ورغم أنه كان سابحًا في الثراء بين أكياس الذهب والفضة والجواهر والجواري الحسان والخدم والحشم، إلا أنه يفضل حياة التقشف المُفْرِط معتمدًا على الكَسْرَة التقليدية أوالخبز والزيتون، ويتعفف عن الأكل المفرط أواللباس الفاخر، يأكل مما نأكل ويتزوج النساء ويمشي في الأسواق، مثله مثل أي واحد من الرعية بالأيالة.

كان يقول ذلك عن شيخه وعلامات الاستفهام ترتفع على محياه، قبل أن يضيف «أما ما حدث لك فأنت أدرى به»، ليشدد بالقول إن الشيخ أمرني بالعودة إلى القصر في المساء بعدما شُفيت من جروحي، لعل الشيخ يجد لي وظيفَة عنده أو عند معارفه، فقد جاءني طبيب خاص وضع بعض الأعشاب لا أعرف كنهها، لكنها تحمل رائحة منعشة في أماكن عديدة من جسمي. وأعطاني الخادم أحمد ملابس جديدة، وهي عبارة عن قميص من الحرير المطرز وهي أول مرة ألبس فيها حرير وحزام أصفر مذهب وسروال بوحجر، بعدما تمزقت ملابسي البارحة بين يدي زبانية الجنية وأعطاني أيضًا بعض الأوقيات علِّي أسُدُ رمقي في الفطوروالعشاء..

خرجت و أنا متثاقل الخطى من أعلى القصبة، قرب قصر

السلطان، ونزلت إلى باب الجديد ثم باب عزون وسمعت بعض الأحاديث عن الضوء المشع ليلة البارح.. توقفت عند مقهى في أحد الزوايا قرب قصر، كان يبنيه حسن الخزناجي، لم نكن ندري حينها لمن كان يبنيه، البعض قال ربما سيتزوج مرة أخرى...آخرون قالوا ربما لابنته. أما الباقون فأجزموا أن الخزناجي أراد أن يكفر عن تلقيه الرشاوي ببناء بيت أمام المسجد العتيق ليكون قريبًا من بيت الله، رغم أن عقاب الراشي والمرتشي في القاع الأسفل من النار مع المنافقين وما أكثرهم في البهجة، خاصَّة الأتراك الذين يُظهرون الورع للناس حتى إذا خلوا إلى أنفسهم أو فيما بينهم، كان هواءهم خمر، ولياليهم رقص وجواري حسان.

في ذلك المقهى، كان يلتقي سُقاة الماء من البساكرة والجواجلة من الخبازين، يرتشفون القهوة التركية وآخرون يرتشفون الشاي بماء الزهر... لقد كان المقهى يطل مباشرة على البحر في طريق الميناء، إذ يجتمع فيها الناس منذ الصباح الباكر حتى تمتلئ ساحتها تدريجيًا. لكن ما يميزها هو طريقة الجلوس، حيث يجلس الأتراك على المقاعد لتناول القهوة أو الشاي، كونهم الطبقة العليا في البلاد. أما البقية وهم الرعية بمختلف أطيافها فيجلسون على الحصير المفروش على الأرض، ولا تخلوا من الموسيقى والغناء بعد صلاة الظهر، إذ كانت تَلقى إقبالًا كبيرًا من الزبائن، يحييها موسيقيون عُرفوا أنهم من الأندلسيين أواليهود.

ألقيت السلام والتحية على الجميع. رمقتهم ببصري قبل أن أُلقي جثتي المتهالكة على حصير مرقع ومتهالك أيضًا، طلبت قهوة وقطعة باقلاوة وقنيدلات، فهما أكثر الأشياء التي تجلبني إلى قهوة العرب، كانت البقلاوة مقرمشة وباللوز الخالص ومعسلة بالعسل الحر.. حتى بادرني أحدهم، هل سمعت ما حدث ليلة البارحة... قلت نعم لا... هل سمعت بالضوء المنبعث من أعالي العاصمة، قلت نعم ولكن ربما يكون أحد الصالحين قد ارتقى إلى السماء أو الداي يكون يجرب في المدفع أو شيء من هذا القبيل، قال لي إنك ما زلت تؤمن بالغول والخرافات، فالداي منشغل بحريمه وجمع المال وملء الخزنة بالزمرد، واللؤلؤ وأخذ الرشوة من البحارة والتجار الكبار، قالها القهواجي مستنكرًا إجابتي البسيطة.. وأمام استنكاره، راح رواد المقهى يتهامسون، كل يحكي رواية فاطمة المعكرة التي أضاء نورها البهجة بكاملها.

سحبت القهواجي وكان يحمل صينية من الشاي وعقدًا به ثلاثة حروز بثلاثة ألوان، أخضر وأصفر وأحمر، وفي يده اليُسرى سبحة، إلى كرسي شاغر فأقعدته أمامي، وقلت له «مسلمين مكتفين راك محصن من كل جانب»، قال الله يحفظك، قلت له اليوم لن أتركك حتى تقول لي من هي فاطمة التي يقولون عنها المعكرة وما قصتها، فرواد المقاهي شغلهم الشاغل التقطيع في أعراض حريم الداي وبناته ونسوة الجيران والتجار واليهود وعائلة بن زحواط اليهودية وبكري وبوشناق، فالمال والجنس والسياسة كانت ثلاثية من ذهب بالنسبة لهؤلاء البؤساء.

قال القهواجي وقد بدا مستسلما بعدما سحبته بقوة، إن الجميع البارحة مثلي أنا لاحظ ذلك النور، وكثيرمن الناس قالوا إن مصدره من بيت «فاطمة لمعكرة» بالقصبة، حين دخل رب العائلة إلى بيته فأصدر صوتا «ينحنح»، ففرت النسوة اللائي يجلسن في وسط الدار، كل واحدة منهن نحو غرفتها، تعبيرًا عن خجلهن وحسن أدبهن. في حين كانت «فاطمةّ» أو «فاطمة لمعكرة»، وسميت بـ «المعكرة»، لأنها كانت كثيرة الحركة، لا تشبه أقرانها من البنات، كأنها مسترجلة، كانت تقطن في «دويرة» محاذية لجامع اليهود بالقصبة العليا رفقة أختها الكبرى المعروفة بنبل أخلاقها ورجاحة عقلها وسماحة أفعالها. وأول أمس، دخلت جارتهما عليهما تطلب منهما قليلًا من الفحم الحجري لتوقد نارًا، فقامت الأخت الكبرى وناولتها ما تطلب، إلا أن تلك الجارة عاودت الكرة ثلاث مرات، فأخذ البنت فاطمة الفضول وذهبت وراء تلك السائلة إلى بيتها لمعرفة أسباب طلبها المتكرر على مادة الفحم، ولما بلغت فاطمة «دويرة» جارتها التفتت إليها هذه الأخيرة، وقالت ،أتريدين معرفة دو افع طلبي يا فاطم؟، إنني أشم رائحة الأكل الذي تعددنه فانتهجت هذا السلوك لعل وعسى أحظى بالقليل منه، خاصة و أنا حامل، «وكان طبق السردين المشوي على الفحم»، فوقع شيء في نفس فاطمة وعادت مسرعة إلى أختها تخبرها بما سمعت ورأت فقالت «يا أختي أعطيها قليلًا من السردين، إنها مريضة وأخاف أن يصيبها مكروه هي وجنينها إن امتنعنا عن فعل ذلك»، فردت عليها أختها قائلة «لن أفعل» وكررت عليها السؤال أعطها مما

سآكله فرفضت مرة أخرى، وبعد مدة من التفاوض اهتدت فاطمة إلى حل وسط يرضي أختها وقالت «يا أختي سأتنازل عن حصتي من هذا المنزل الذي ورثناه عن والدينا وسأستأجر غرفة من هذه «الدويرة» وأصبح بدل المالكة أجيرة، مقابل ذلك تمنحين الجارة المريضة طبق الأكل الذي اشتهته، السردين والمتوم، فقبلت الأخت الكبرى بذلك. فقامت فاطمة وأخذت ذلك الطبق إلى جارتها وعادت إلى غرفتها. وفي تلك الليلة حدث ما لم يكن في الحسبان، حين جن الليل دخلت المعكرة وأختها إلى غرفتيهما يستعدان للنوم، فجأة سمعت الأخت الكبرى حركة غير عادية في الغرفة التي تنام فيها أختها الصغرى فاطمة، ونهضت لتستطلع الأمر فوجدت أرجاء تلك الغرفة تشع نورا، كما رأت ماءً معطرًا بالبخور ينساب من تحت الباب، فبُهتت الأخت مما رأت وحاولت فتح الباب فوجدتها موصدة بإحكام، فذهبت إلى جيرانها الذين تو افدوا بكثرة نحو منزل الفتاتين، ففتحوا الباب بسهولة تامة فوجدوا فاطمة ممدودة وسط الغرفة ملفوفة بإزار ناصع اللون، يداها مخضبتان بالحناء ونصبت شمعتان على يمينها وشمالها، ومع بزوغ شمس النهار حاول جيرانها دفنها بمقبرة القطار بالعاصمة، وبعد أخذ ورَد قرر كبار القوم اتخاذ غرفتها مثواها الأخير، وقبرها ما يزال كما هو وفي المكان ذاته بالقصبة، حيث تسكن مهملا، خاصة بعدما انهارت تلك «الدويرات» المحاطة به.

هذه الحكاية، يقول القهواجي الذي يبدو أنه جمع كل

الروايات الدائرة بين حيطان المقهى واعتصرها كما تعتصر حبات القهوة.. لقد استمعت لقصة فاطمة المعكرة وبالي عند ذلك الشيخ، لماذا يعينني على إيجاد وظيفة، هل يعلم أني لقيط وأني أنام في الشوارع.. أسئلة كثيرة دارت في خلدي وأنا أدفع بعض الأوقيات ثمن القهوة والحكاية للقهواجي الذي يبدو أنه كَرِهَ وجودي في المقهى وهو يتحسس رقبته بعدما سحبته بقوة.

صاحبنا يتنحنح ويقول كلامًا غير مفهوم، فقال: القهوة وشربتها والقصة وحكيتها لك، افهم روحك يا بنادم، وبدأ يتراقص من طوله يريد أن أزيد له حق خدماته، فزدته بعض الأوقيات ووصيته أن يكون مستمعًا جيدًا حتى لحديث الحيطان، فلربما احتجته يوما ما لأمرٍ جلل..

مزين القمر بضواه ومزين الإنسان اللي في قلبو جامع، ومزين النجوم كيما الياقوت مجمع ويلمع، ومزين القلب اللي عطاه ربي حبيب كيما حبيبي.

في مقبرة اليهود

في المساء بدأت المدينة تسترجع بعض رونقها بعد الاحتفال بيوم الباهان الأكبر الذي كان صاخبًا، وبعد أن مر القائم بالزبالة بين الأزقة وأمر الأعوان بالمسارعة لتنظيف الممر الرئيسي، فالداي مصطفى باشا سيمر من هنا لأداء صلاة الجمعة بجامع علي بتشين، قبل أن ينطق احد المارة «تنظفون غيروين يشوف القاضي والداي تبا لكم»، ولم يلتفت أحد لحديثه، وواصلت الأحمرة صعودها إلى أعلى القصبة لاستقبال يوم الجمعة الذي تنظف فيه المدينة بشكل مضاعف ويكون فيها باش الزبل، يبحث عن من يشفي فيه غليله بضربات الفلاقة على قدميه، فهو يسير بين الأزقة حاملًا عصى صغيرة، لكنها تبدو مؤلمة حقًا.

قررتُ الذهاب إلى قصر الشيخ القنيعي، فاغتسلتُ بسرعة لأن الماء بارد جدًا ووضعت بعض المسك المكي على ملابسي، والكُحل في عيني، ولبست قميص الحرير وسروال بوحجر، وكنت أسمع بعض التعاليق الساخرة عن ملابسي وأنا أمُر بين الأزقة في القصبة، من قبيل «هذا راح يخطب» وآخر يقول «وين رايح يا الزين»، كنتُ أسمع تلك التعاليق دون أن ألتفت إليها، فلقد لبست روح الباشا وقتلت روح الغسال فيَّ... وعند وصولي إلى قصر القنيعي قبيل صلاة العصر، طرقتُ الباب من

المقبض الأول.. لم يُفتَح لي الباب فطرقت الباب من المقبض الأسفل فلعل أهل الداريظنوا أني منهم فيفتحوا.. فلم يُفتح لي فدخلتُ متسلقًا الجدار مثل اللصوص والسرسرية، فوجدت النسوة يندبن وصراخهن يملأ الأجواء، لقد مات الشيخ، هذا ما فهمتُه فحزنت لذلك، قبل أن أتأكد من أحد الخدم أن المتوفى هو أحد أبنائه، فاختلطت المشاعر لديَّ بين الحزن على وفاة ابن الشيخ وفرحة لأن القنيعي لا يزال حيًا بيننا في هذه المدينة التعيسة التي اسودت فيها الأيام، بسبب طغيان الفساد واليهود في الوقت نفسه.

و أنا أحدث نفسي، وجدتُ يد أحد أبنائه يسحبني ويُدخلني مسرعًا إلى إحدى الغرف ظنًا منه أن الداي أرسل غسال الموتى لتغسيل ابن الشيخ الطاهر الذي ربما يكون نوره هو من أضاء القصبة بالأمس، والناس فسرتها على أنه نور تلك المعكرة التي عكرت يومي بوفاة ابن شيخ فاضل وصل خيره إلى كل أصقاع المدينة، بل إلى كل العالم... سحبني ابن الشيخ البكر و أنا خطواتي مثقلة، هل أخبره أنني لست غسالًا للموتى؟ و أني لم أؤد الصلاة قط ولا أعرف كيف أغَسِّل ميتًا، بل ليس لي القدرة على ذلك.. صحيح أني قتلت العديد من الرجال، لكن أن أغسل جثثهم، كان ذلك مستحيلًا... المهم سحبني إلى غرفة والده، حيث كان الابن المتوفى مُلقى على فراشه، لابسًا الأبيض من ساسه إلى أخمص قدميه، وكانت ابتسامة على محياه وعيناه جامدتان وتبرقان كأنه رأى مثواه في الجنة، فهو ابن شيخ صالح

والخير الذي أسداه للناس يذكره العدو والصديق والبعيد قبل القريب... كان أحد أبناء المتوفى يبكي بحرقة ويقول بصوت خافت، لم يترك لنا شيء بعده، لقد تصدق بكل شيء ولم يترك لنا أية وصية.. بعض الخدم قالوا إن ابنه كان يسكنه الطمع في الميراث، لكن أصيب بغصة لما سمع أن والده ترك لهم الله ورسوله.. فصار يكرر الله ورسوله.. الله ورسوله.. كأنه غاضب منهما.. لقد كان والده المتوفى يشرف على تجارة الأقمشة والأعشاب الطبية والتوابل، التي تمتد من الهند والصين وكل أسواق بغداد والمدينة المنورة ودمشق تعرفه، وثروته تضاهي ثروة الداي مصطفى باشا.

سألت عن سبب وفاته فقيل لي إنه تعرض إلى لسعة بعوض سام، عندما كان على رأس قافلة تجارية بحرية إلى الصين، فلما جاء إلى المحروسة، كان في سكرات الموت ولما جيء بالطبيب وكان شيخًا هرمًا تفصله خطوات معدودة للموت، فقال لهم إن السُم تمكن منه وما عليكم إلا بالدعاء بأن يخفف عنه سكرات الموت، ولم تبق له من الحياة إلا سويعات معدودة.

ابن الشيخ يتاجر في الشاي والقماش والتوابل والشمع وكثير من الأعشاب التي تعيد الفحولة والحياة للنساء والرجال على السواء، كان يعرف بتاجر خلطة السعادة، تأخذ منها حفنة تنسى فيها عجزك أمام النساء وتضحى شابًا يافعًا من جديد، فكيف يكون حالنا بعده، سأل أحد الخدم، وفي هذه اللحظة

قدم لي الماء الساخن في قِدرٍ كبيرٍ وبعض المناشف والصابون وقيل لي إذا احتجت أي شيء سَل الخادم أحمد.. وهنا تنهدت تنهيدة كبيرة فأحمد يعرفني من قبل وهو من سيتكفل بغسل الميت في مكاني، بعدما كشفت له أن ابن الشيخ ظن أنني الغسال ولم أكن أعرف شخصيًا أن القدر يرسم لي طريقا لكي أكون غسالًا للموتى في القصر.

قبيل الجنازة اغتسلتُ في بيت ابن الشيخ المتوفى، وكان الماء الساخن في ساحة القصر يتدفق من فم شبل صغير والصابون معطر بالمسك، وعلى طاولةٍ صغيرةٍ كانت بعض المنشفات، كانت تلك المرة الأولى التي أتحمم فيها عاريًا دون أن أخجل من حالي، ثم عزمت على الالتزام بالصلاة بعدما رأيت الورع يتجسد في آل القنيعي.

..وفي الجنازة وكانت مهيبة بشكل كبير، حضر جمع غفير من الناس، فالرجل امتدت سمعته من المحروسة إلى البليدة وغيرها من المدن المجاورة لمدينة الجزائر، صلينا عليه في مسجد علي بتشين أمام الميناء وقد اختصر الإمام خطبته لِذِكر محاسن المتوفى والتأكيد على ضرورة الاقتداء به، فقد كان مثالًا لكثير من الشباب الذين كان حلمهم أن يكونوا مثله في ماله وثروته وأخلاقه بدل الغوص في دوامة الإدمان على الكيف.

كان إذا مر الموكب الجنائزي، ظلت نسوة المدينة يزغردن

ويلقين أوراق الياسمين من النوافذ وهن يبكين ومرتديات السواد.. لكن اللافت هو حضور العديد من الأجانب والتجار اليهود، منهم بن زحواط وبكري وبوشناق وبوشعرة والمعروفون برؤوس الفتنة، وقفوا على قارعة الطريق متسمرين في عرباتهم يرقبون نظرات المارة المستهجنة لوجودهم بين المسلمين بلباس الكهنة والرهبان اليهود... وعند الانتهاء من مراسم الدفن تقدم إليَّ شخص ثخين، كان أعرج وسمينًا والعرق يتصبب من جبينه، أصلع ذا لحية سوداء ودون شوارب، يلبس عباءة سوداء قصيرة، همس في أذني إن بن زحواط اليهودي يريد أن نلتقي في جبانة اليهود في بولوغين في أمر مهم، قبيل المغرب بقليل، قلتُ في نفسي هذا يوم المقابر من مقبرة إلى أخرى، قلتُ له من أنت؟ ومن هذا بن زحواط؟، قال أنا ريمون بن رعمون، أحد أعوان التاجر الكبير بن زحواط وهو يريد أن تعمل عنده ربما.

تداخلت الأسئلة في خاطري عن هذا الأمر المهم الذي يريدني فيه أحد «أرباب الدزاير»، فقد كان لليهود في المحروسة، خاصة التجار الكبار منهم حظوة كبيرة لدى الداي والديوان عمومًا، فالكل كان يأتمر بأمره فهو كان يحيي ويميت، ويُدخل من يشاء السجن، ويُدخل النعيم من شاء، كان يَعرِف أقصر الطرق للوصول للرجال، تارة بالمال وتارة بالسلطان وتارة بالنساء والجواري والليالي الملاح.

في الطريق نحو المقبرة، حرص مرافقي وعون بن زحواط

المدعو ريمون على إحراجي بأسئلة تخص الكَنز الذي يبحث عنه ربه، يقول إن اليهود منذ حملة شارلكان ملك إسبانيا في القرن الخامس عشر وهم يبحثون عن الكَنز الذي حمله معه من إسبانيا إلى مدينة الجزائر.

الحديث عن الكَنز لم يكن يغريني في شيء، فقد عشت بين الحُفر والبقر والإسطبلات ومع الماعز في الكوخ، فالكَنز كان يبدو لي حديثًا لا معنى له؟

ريمون وهو يلهج ويلتقط أنفاسه، أنتم المسلمون مشكلتكم أنكم تنسون تاريخكم بكل سهولة، قلتُ «يا سيدي احكيلنا تاريخنا إلى غاية وصولنا إلى مقبرتكم»، قال كم تدفع فالتاريخ غالي و أنت مُعدَم لا أوقية ولا ذهب ولا حتى نحاس عندك، فقلت أنتم اليهود «على الدورو تموتوا»، فاحمر وجهه غضبًا قبل أن يسترجع ضحكته الحامضة ويقول إن السلاطين في أوروبا لهم عادات أصيلة، منها أن يحملوا كل نفيس معهم في معاركهم البحرية أوالبرية، و أثناء حملته على الحراش، فَقدَ كَنزه بعد تدخُل الذي تسمونه الوالي سيدي بولقدور، حيث ضرب البحر بعصاه فهاج. كما أنه كان يغلي الماء في القدور التي وضعها في الضريح وكلما كان يغلي الماء كان البخار يزيد هيجانًا، ونتيجة لذلك أعلن الملك الإسباني هزيمته أمام الأسطول الجزائري الذي أكمل ما أنجزه سيدي بولقدور بضربات مدفعية، فخرج شارلكان خائبًا خاسرًا تاركًا الكَنز في الوادي.

إلى هذه الدرجة كرامة الولي قوية وله الحظوة بين الأولياء، قال وهو يهز كتفيه هكذا تعتقدون أنتم. فسألت ماذا عن الكنز هل وجدتموه؟، فقال الكنز أخذه البايلرباي خير الدين باشا وخبأه في دار السلطان في القصبة، لكن لا أحد بإمكانه كشف المكان إلا الشيخ القنيعي الذي مات ابنه و أنت في حضرته، ذلك أنه يملك وصية تركها البايلرباي لأحد جدوده فتوارثوها أبًا عن جد دون أن يخرج السر الذي تحمل. قبل أن أسأله من أين له معلومات بأني كنت مع الشيخ القنيعي، هل أخبرته العصفورة أم جن؟.

اندهشت مما سمعت وتثاقلت خطو اتي عند دخولي المقبرة اليهودية، لكني تنبهت إلى أن كثير من الخياطين بقصر القنيعي والأحياء المجاورة من اليهود قد يكون أحدهم أوصل المعلومات عني بسرعة البرق والحمام الزاجل.

هي المرة الأولى التي أدخل فيها مقبرتهم، القبوركانت بالرخام وسياج مطلي باللون الذهبي، مكتوب عليها بالعبرية والعربية أسماء الموتى، كنت أقرأ في شواهد القبور أسماء لعائلات كنا نعتقدها عربية ومسلمة مثلنا وإذا بها يهودية مثل عَزَارَة شالوم - بربون - بن عمري - بن طبيبل- شامي، كنت أقرأ في الشواهد وأحدد مو اقعهم في الحومة، حيث أسكن، كانوا يأكلون مثلنا ويمشون في الأسواق ويلبسون ملابسنا كأنهم منا ونحن منهم، يحزنون لحزننا ويفرحون لأفراحنا.

و أنا أحدد المو اقع، كان بن زحواط يرمقني وهو مرتدي السواد كأنه غراب أسود و أثار الثراء بادية عليه، فقد كان وجهه محمرًا ممتلئ الجسم، وكان إصبعه يداعب بعض الشعيرات من لحيته وقد بدا عليه المكر والخداع.

قلتُ سلام، قال شالوم وهو يهز رأسه متمتمًا بكلمات لم أفهمها، نظرا إليَّ وهو يركز بصره إلى حذائي المرقع وإصبعي الكبير البارز، انتابني شيئ من الخجل لأول مرة فهو شعور لم أُحس به من قبل فلم أقف في مثل هذا الموقف، فكل معارفي ملابسهم مرقعة وبعضهم أو أكثرهم لا ينتعل حذاءً أصلًا...

دخل بن زحواط في الموضوع مباشرة وهو ينظر إلى ساعته بعدما رفع نظارته عن عينيه قليلًا قائلًا: ما قصتك مع الجنية الزنجية؟، هل أعجبتك قُبلتها؟، وبدأ يضحك دون أن يحترم حرمة الموتى، قلت: كيف تعرف تلك الجنية المشؤومة؟، ألهذا استدعيتني؟ قال: أنا وظفت الجنية كي توصلك إلى بيت المعيتقي حتى نعرف مكان الكَنز فهو الوحيد الذي يملك وصية خير الدين باشا ومن الكَنز كان يتصدق على الناس... كنتَ تحت تأثير السحر الأسود وقد قتلت ابن القنيعي من حيث لا تدري... وبإمكاني إدخالك السجن بتهمة القتل... و أنت تعرف أنه يمكنني تحضير ألف شاهد ليشهدوا ضدك وسيحكون الرواية التي أقولها لهم بالحرف الواحد، هنا سقطت على الأرض مغشيًا عليَّ حتى أفاقني ريمون من غفوتي بدلو من الماء كان مخصصًا

لغسل الموتى، فلما استفقت كرهت نفسي وأصابني بعض التقزز من ماء الموتى اليهود... وبدأت أتوسل لابن زحواط... كنت أعرف أن يديه طويلة وبإمكانه إعدامي دون شفقة أو نفيي من الأرض دون أن يعلم بي أحد، وأصلًا لا أحد يعرفني في هذه المدينة، إلا بعض الجيران واللصوص.

لقد اتفقنا على أن يجد لي عملًا في قصر دار السلطان قبل أن يضع في جيبي قطعًا من الأوقيات، فشكرته مقابل أن أزوده بمعلومات عن الكَنز الساحر وعن قصة المفاتيح السحرية المخبئة في رؤوس الأسود في كل باب من أبواب العاصمة، وما هي الكلمة السحرية التي يمكنها تفكيك السحر الذي يتقمصها.. كانت مهمةً صعبة فلأول مرة في حياتي أسمع عن الكَنز وخزنة الداي ولما دخلت إلى البيت تزملت برداء رث، ومن ثقل المسؤولية وصعوبة المهمة أحسست أن رأسي أضحى ثقيلًا عن العادة وأن حمله يرهق كاهلي فارتميت على الفراش دون أن أنزع ملابسي إلى غاية اليوم الموالي دون أن انتبه إلى تسرب مياه الأمطار إلى بيتي والهرج الذي أحدثه الجيران الذين سارعوا بالدلاء لجمع الماء وإخراج المتساقط منه على الأرض، لكني استغربت من حالي عندما وجدتني جُنُبًا دون أن أذكر أني جامعتُ جارية أو جِنِيَّة.. اغتسلتُ و اتجهت إلى مسجد اليهود، حيث توفي عمي بن قيطون الذي يملك محلات ضخمة من القماش وبواخر يتاجر بها بين أسواق بغداد ودمشق والهند وكل الجزيرة العربية، قلتُ في نفسي ربما هي حجة وفرجة، أُغَسِّل الميت كما تعلمت

من الخادم أحمد و أتقاضى أجرًا على ذلك، و أقترب من عِليَة القوم الذين يجتمعون تارة في الجنائز والأعراس، فَلَعلي أربح على وجوههم فأعمَل عند أحدهم أحسن من أن أعمل عند اليهودي.. حاشاكم.

قعدت تحت النخلة قالولي دقلة نور، جات ادور النحلة وبالعسل عليت الصور، معاه العيشة تحلى هذاك الساكن في القصور.

حميدو وماما بينات

صديقي الوحيد في مدينة الجزائر كلها شخص واحد هو حميد بن علي، كنا ونحن صغارًا نتعلم الخياطة عند والده، في ماكنات اشتراها خصيصًا من الصين، جلبها ابن القنيعي لإنشاء ورشات صغيرة للخياطة، ولما كبرت أصبحتُ أشتري من والده الأكفان.. حميد عشقه للبحر جعله يترك والده وحيدًا في المدينة ويلتحق بالبحرية الجزائرية، الشيء الوحيد الذي كنا نفتخر به في هذه المدينة التي كثرت فيها الدسائس من قبل اليهود وتواطؤ الدايات مصطفى ثم أحمد مع الفرنسيين تارة والإنجليز تارةً أخرى، حميدو رفع الرأس عاليًا، وكانت أي موجة في المتوسط إلا وترسو في قاع السور وأي خشبة تسقط في عرض البحر إلا ويبني بها قاربًا أو جزءًا من سفينة.

كان حميدو يتابع بكل شغف عملية تسليم الدنوش أو الهدية وتجديد البيعة للداي بكل فخر واعتزاز كلما مر بعين الربط في الجهة الشرقية من عين الربط، حيث كان يلتقي بالقياد والخيالة، فالخيل والبحر عنده سواء.

البايات يبيتون بعين الربط أو ساحة المناورات، الموضع الذي كان معدًا لنزول محلة الجنوب مع محلة الغرب وفي الصباح

يسير وكيل الباي المقيم في الجزائر، ويخبر الداي بوصول الباي لعين الربط وهو ينتظر المثول بين يديه فيأمر الداي الخزناجي والأغا بملاقاة الباي، فيخرج هؤلاء ومعهم الأعلام والطبول، وبعد شرب القهوة مع الباي يستأذنون في الركوب لملاقاة الداي، ومنذ ركوب الباي لدخول المدينة وهو يرمي الدراهم يمينًا وشمالًا، يتقدمهم الديوان وعلى رؤوسهم الريش مصفوفًا يمينًا وشمالًا، ويتقدم الجميع رئيس التشريفات أو شاوش السلم والبراح، وأمامهم أربعين بغلة عليها ثمانون ألف ريال، وأربعون فرسًا من الخيل المسومة، و أقفاصًا فيها السباع والنمور، وبقر الوحش وغيرها من الحيوانات، فهذه الأمور كلها للبايلك.

عندما يصل إلى دار الإمارة، يدخل الباي راكبًا حتى يقابل الداي وهو جالس على سرير الملك فينزل ويقبل يده ويتأخر قليلًا، فيأمره أن يجلس على يمينه قدر طول الرمح، وبعد الإجراءات التقليدية يتقدم أغوات الباي وكبار القوم يقبلون يد الداي الواحد تلو الآخر، ويكون الباش سيار واقفًا قريبًا منه يعرفه بالناس، فإذا انتهى من السلام يتأخر الباش سيار ويتقدم الخزناجي فيأخذ الخلعة من يد كبير الكتاب ويلقب بباش خوجة، فيقبلها ويقدمها للباي فيقبلها بدوره، ثم يخلعها الخزناجي على الباي، فإذا لبسها تقدم وقبل يد الباي ويتأخر شيئًا، فإذا وصل إلى دار نزوله يجلس على كرسي وسط الدار وتضرب النوبة حوله وهو جالس، فإذا انتهت يأتي شاوش السلام

التابع للداي فيعطي السلام بأعلى صوته للحاضرين، وعندئذ يصعد الباي إلى مجلسه بأعلى الدار وينزع الخلعة فيأخذها باش شاوش العرب، ويأخذ عوائده، ويذهب بالخلعة لدار الإمارة ليضعها مع الخلع العثمانية، ثم يعطي الباي العوائد لأصحابها وبعد ذلك يأتيه خادم الأمير الذي يقال له البسكري نتاع الباشا، فيطلبه للفطور، ويتغدى مع الوزراء والطباخ الكبير، فإذا خرج الباي بعد الغداء من اليوم الأول فإنه يرجع لداره ويحضر هدية الداي وبعد تحضيرها يأتي رسل الداي فيدعونه للسرايا ليختلي به وحده من غير حضور الوزراء، فيذهب ومعه وكيله، وبعد السلام يأمرهما الداي بالجلوس، ثم يأخذ المماليك الهدية من يد خادم الباي وأتباعه، فأما الدراهم والأشياء الثمينة فيدخلونها إلى الخزنة، وبعد شرب القهوة يخرج وكيل الباي والخزندار والباش كاتب ويبقى الباي وحده مع الداي، وبعد أن يتحدثا مقدار ساعة ينصرف الباي إلى بيت الخزندار ثم إلى موضع الطباخ الكبير ويخرج إلى داره ليستريح، ولا يدخل عليه أحد إلا بإذنه وعلى بابه عسس دار الملك يتبدلون ساعة بعد ساعة لحراسته وخدمته.

اليوم السابع يستدعي الداي الباي فيذهب للسرايا ويجلس ويوصيه الداي بالرعية خيرًا ويوصيه على أمور بيت مال المسلمين، فإذا انفصل من عنده ورجع إلى داره يرسل له الداي هديته، وفي اليوم الثامن يذهب في الصباح للسلام علي الداي من جديد وبعد شرب القهوة يلبسه الداي قندورة من

ذهب ويسلم عليه ثم ينزل إلى عين الربط وعند مروره بالبرج تطلق عشر طلقات مدفعية لتحيته.

حميدو الوسيم، هكذا كنت اسميه، كنت دائم الزيارة إلى والده، إذ منه كنت أتزود بالأكفان، قال لي ذات مرة إن حميدو قال له يومًا ما سأصبح ريسًا للبحر، سألته عن سر غيابه منذ سنوات عن المدينة، فقال إنه انتقل إلى وهران وهو يعمل لديه بحارًا بين الباهية وإسبانيا، وآخر رسالة أرسلها لي كانت منذ شهر، هو في بيروت، حيث يعمل هناك، وقد مر بتونس وعمل فيها أشهرًا قليلة.

في أحد الأيام في وقت القيلولة وكان الجو حارًا، تركتُ الباب مفتوحًا على نسيم البحر يساعدني في النوم، سمعت طرقًا ببابي، كان بي صداع شديد، تثاقلت في النهوض، ظننت أن الصوت بعيد جدًا، ثم استيقظت وفتحت الباب على عجل دون أن أنظر من الطارق، كان طويل القامة، راح يتكلم معي بالإسبانية، بونس دياس اميغو كومو ايساطا، فقلت أنا لا أفهم ما تقول، قبل أن أدقق فيه، أنه حميدو بن علي الخياط، صديقي الوسيم.

دعوته إلى الدخول إلى الصحين ثم البيت، بعد فرار نسوة الدويرة إلى بيوتهن لم يكن مرتبًا، أريكة هنا وغطاء هناك

وحذاء هنا، وملابس هناك، ومائدة بها خبز يابس وكأس حليب به بعوضة زرقاء، بيتي اختصار لحياة أعزب بلا هدف في الحياة، قال إن الداي مصطفى استدعاه إلى أمر مهم لا يدري ماهو، وهو الذي أمر منذ سنتين أو ثلاث بالقبض علي، والسبب تعرفه، قلت نعم.. تبًا لليهود هم وراء كل مؤامرة، اتهموك بسرقة بعض المراكب وإخفاء معدات الصيد في الميناء، وفي اليوم نفسه قُتِل فيه أحد البحارة ولما اختفيت، كنتَ أول المتهمين، لكن قل لي أين اختفيت؟، قال: في ذلك اليوم انتقل بعض الانكشارية إلى الميناء وكان معهم شخص يهودي يدعى ريمون، ذلك الثخين البائس، هل تعرفه؟، المهم كانوا يبحثون عن قوارب صغيرة للصيد قيل إنها اختفت في الميناء، ولما سألوا صغار الصيادين دلوهم عليَّ، فلما وصلوا إلى مكاني وجدوا بحارًا مقتولًا في المكان الذي كنتُ أبيتُ فيه، ولما تناهى إليَّ ذلك خفت أن أُتَهَم بقتله، فأسرعتُ إلى جمع أغراضي، وركوب أول سفينة أجدها في طريقي، فسافرت إلى تونس ثم إلى بيروت، قبل أن يُرسِل لي الداي مصطفى بعد أعوام كتابًا يقول فيه إنه يريدني لشيء مهم ولن يمسني و أنه سيرفع الحظر عن تجارة والدي المسكين، و أنا جئتك هنا لتحدثني عن الداي مصطفى، فقد تناهى إلى سمعي أنك تعمل في قصر دار السلطان، وأريدك أن تزودني بمعلومات عن علاقته بالرجل القصير نابليون بونابارت، فأنت واصل ومقامك كبير غسال القصر.. وبدأ يضحك.

قلتُ له: دون استهزاء وإلا ضحكنا سويًا، بداية الداي

مصطفى كان كناسًا في القصر، يحمل المكنسة وينظف البيوت في القصر، لكنه بقدرة قادر أصبح خزناجيا ثم بايا ثم دايا للمحروسة، فقال الرايس: لكن أين السر في شخصيته، هل هو قوي لهذه الدرجة، قلت: لا ولكنه أستقوي باليهود أنت تعرفهم الأخوين بكري وبوشناق، فقال: نعم، ثم أردف: لكني سمعت أنه مرعوب هذه الأيام من رسالة وصلت إليه من مبعوث خاص للرجل القصير، قلت: يبدو الآن لا شيء يخفى عنك، و أنك استعلمت بكل شيء قبل المجيء إليَّ، فطلب مني أن أواصل الحديث عن الرسالة، فقلت: هل سمعت عن الباخرة الفرنسية التي غرقت في سواحل تنس غرب المدينة، فقال: سمعت طراطيش كلام وليس لي الرواية الصحيحة المقنعة، سمعت خرافات فقط.

قلت: إن السفينة وتدعى «البانيل» غرقت قُرب سواحل التنس بينما كانت متوجهة نحو أمريكا مع مهاجرين آخرين، حديث سهرات الصيف بشواطيء واد غوسين. أهي أسطورة حقيقية أم خيالية؟

في ٩ يناير الماضي أبحرت سفينة «البانيل» من ميناء تولون (جنوب غرب فرنسا) وهي باخرة من أسطول البندقية تحمل العلم الفرنسي جهزها نابليون بونابارت أو الرجل القصير، كما يحلو له تسميته، بعتاد حربي إلى وجهة بعيدة وهي سان دومينغ بجزر الكرايبب، حيث كان الفرنسيون والإنجليز يتنافسون

على الجزيرة، واعترضت طريق هذه السفينة عاصفة هوجاء فغيرت مسارها ولم تصل أبدًا إلى جزر الكرايب، حيث أخذتها العاصفة بعيدًا إلى خليج سواحلية بواد غوسين في مفترق الطرق بين تنس وبني حواء، وكانت تحمل معها سبع راهبات، كُن الناجيات الوحيدات من العاصفة.

فسألته: إنك تعرف جيدًا هذا الخليج، قال: كيف لا، فمنه انطلقت للعمل لدى باي الباهية محمد الكبير،إن السفينة أخذها نابليون بونابرت من أسطول البندقية بعد حملته في إيطاليا (١٧٩٦) و انتصاراته لاسيما في لومبارديا.

وأدت بالقبطان كلماند قائد السفينة إلى المحكمة العرفية فورعودته إلى فرنسا، لكن «لم يكن ثمة راهبات قط على متن السفينة» التي كانت متوجهة إلى أمريكا، وكتب قنصل فرنسا بالجزائردوبوا تاينفيل في رسالة احتجاج للداي مصطفى باشا بضعة أشهر بعد غرق السفينة بجون سواحلي، يقول «إن السفينة الفرنسية «البانيل» التي كانت تحمل على متنها ٢٠٠ بحارو٥٢٩ عسكري و٩ نساء تاهت عن مسارها يوم ١٥ يناير ١٨٠٢ على سواحل البربر»، وخلص الدبلوماسي الفرنسي إلى القول في رسالته الاحتجاجية لداي الجزائر إن «العديد من الناجين من الغرق لا يزالون متواجدين تحت سلطة الأمازيغيين ومنهم ثلاث نساء وهن راهبات والكونت نو ايي ضابط والعديد من البحارين الصغار»، فسألني: لكن ماذا حدث بالفعل؟

خلال ليلة ١٥ يناير ١٨٠٢ قرب السواحل الجزائرية في جون واد غوسين الحالي في الواقع «البانيل» كانت ضمن حملة عسكرية تضم ٢٠٠٠٠ رجل على متن ثلاث سفن أرسلها نابليون بونابارت إلى سان دومينغ للقضاء على تمرد توسان لوفرتور، وهو عبد أصبح لواء.

وكان العيب الوحيد في سفينة «بانيل» مثل بقية سفن البندقية يتمثل في بطئها وثقلها وصعوبة استعمالها. وخلال عاصفة هوجاء تقدم الأسطول الفرنسي على هذه السفينة التي تمت بواسطتها إعادة السجناء الفرنسيين من مالطا بعد «معاهدة سلام اميانس» (٢٥ مغرس ١٨٠٢).

وقد قرر قائد السفينة التي ابتعد عنها الأسطول الفرنسي بفعل العاصفة، القبطان كلماند الذي كان يعرف جيدًا جون سواحلية جنوح السفينة بشاطيء واد غوسين الذي يقع على بعد ١٠ كلم غرب القرية الصغيرة لبني حواء.. وكان سكان المنطقة يظنون عندما رأوا السفينة الفرنسية الضخمة بالجون، خاصة وهي تخرج زوارقها أن الأمر يتعلق بغزو الفرنسيين لهم»، وكانت المعركة شرسة بين سكان المنطقة وقبائل بني حجة والبحارة والجنود الفرنسيين. بالمقابل، كتب قنصل فرنسا بالجزائر، دوبوا تينفيل، بخصوص هذه القضية في رسالته التي وجهها للداي مصطفى: «إن التقارير التي وصلتني حول هذا الحدث (غرق سفينة بانيل) مرعبة،

حيث هدد نابوليون بونابارت الذي كان متعجرفًا ومتكبرًا في رسالة شديدة اللهجة وجهها يوم ١٨ جويلية ١٨٠٢ إلى الداي مصطفى طالبًا منه «توضيحات» بشأن البحارة والجنود الذين بقوا على قيد الحياة بعد معركة واد غوسين.

وجاء في رسالة القنصل الأول للجمهورية الفرنسية، إلى داي الجزائر العاصمة أن «من السفينة التي غرقت هذا الخريف بسواحلكم ينقصني أكثر من ١٥٠ رجلا هم بين أيدي البربر»، مؤكدًا أنه سيرسل سفينة من أجل «إعادة الـ ١٥٠ رجل الذين ينقصونني إلى فرنسا»، وفي الواقع فقد هدد بونابارت مباشرةً داي الجزائر بالتنقل هو شخصيًا من أجل «استعادة رجاله» إذا لم يقم بأي شيء من أجل العثورعلى الغارقين. وفي رده الذي كان ديبلوماسيًا، يوم ١٢ غشت ١٨٠٢ قال الداي مصطفى «أنتم تطالبون باستعادة الأشخاص الـ ١٥٠ الذين يكونون حسب ما يقال قد ألقيوا على الشاطيء عقب غرق السفينة»، حيث إنهم «لقوا المصير الذي سطره الله لهم ولم يبق ولا واحد من بينهم وهم جميعهم مفقودون. هذه هي حقيقة الأمر».

في الحقيقة، أُعيد ثلاثة أرباع الأشخاص الذين كانوا على متن البانيل إلى فرنسا بعد أن تم توقيفهم واعتقالهم من قبل باي وهران محمد مقلش (ابن الباي محمد الكبير الذي استعاد نهائيًا مدينة وهران من الإسبان). بيد أنه كان ينقص عدد من الأشخاص، لاسيما النساء اللواتي استقلت خمسة

منهن البانيل انطلاقًا من باخرة بريطانية «البولدوق» بمالطا بعد معاهدة أميانس. وأضفتُ أن الداي مصطفى باشا يعرف جيدًا كيف يتعامل مع فرنسا فلديه تجارة هناك في مارسيليا ولا يرغب في إفسادها. كما أن أعوانه أو أربابه بكري وبوشناق يعرفان جيدًا من أين تؤكل الكَتِف وربما يكون لهذا السبب قد استدعاك لملاقاته، افترقنا على صينية قهوة تركية بماء الزهر والياسمين وقد اقترضت بعض الحلوى بقلاوة وقنيدلات إكراما لضيفي الرايس الذي سيصبح بعد غد رايس البحار، حيث وصل أسطوله إلى الدنمارك والسويد والبرتغال وإسبانيا وحتى أمريكا.

لقد تحقق حلم حميدو ابن الخياط الوسيم، كان يخيط الأكفان وهو اليوم يحمل كفنه في «عراقيته»، ويخيط الأمواج على هواه فكان ملك البحار يحترم خصمه، ويبغي المواجهة مدفعًا بمدفع وسيفًا بسيف، هو تحقق حلمه فهل يتحقق منامي فأصبح دايا على الجزائر، فالكناس هو اليوم يحكم في المحروسة تحت رعاية أوليائها الصالحين، لكن عندما أتذكر الجزء الثاني من المنام يصيبني ألم في رقبتي ثم أقول إنها أضغاث أحلام لا تسمن ولا تغني من جوع.

عطالو ربي من الذهب جبال ما تنحيها لوجيوش من الرجال، ولي عطاه الزين وخصال ما يتبدل والدهر بدال يبقى كالذهب مهما حال.

الثورة ضد اليهود

كان يتكلم عن مقتله... حملوا رأسه وجسده مخضب بالدماء وجابوا به شوارع المدينة عبر أبوابها الستة... كانت طلقة نارية واحدة من مسدس عثماني على رأسه ليَسكت اليهود ويختفوا من الأزقة.. ففي يوم ٢٨ جوان ١٨٠٥ وبينما كان بوشناق خارجًا من قصر الداي مصطفى باشا انقض عليه أحد الانكشارية وكان أحد أصدقائي واسمه كوجق فأراده قتيلًا قائلًا: «تحية إليك يا ملك الجزائر» ولما التف حوله الجند قال لهم وهو في قمة الغضب والهيجان: «لقد قتلتُ اليهودي، فهل أنتم من كلاب اليهود؟»، فتركوه لشأنه، قبل أن يوضَع في السجن بأمر من الداي الذي لقي مصير بوشناق نفسه فيما بعد. كما هاجرت عائلات يهودية كثيرة خوفًا من القتل والنهب، فهاجرت نهائيًا من الجزائر ١٠٠ عائلة يهودية إلى تونس و٢٠٠ عائلة إلى كاليفورنا في ١٠ يوليو ١٨٠٥.

لقد ظللت طيلة ذلك اليوم أردد في خلدي كلمة كلاب اليهود.. كلاب اليهود.. كنت أتساءل ماهي صورتي عند بن زحواط وعونه ريمون.. كلب من كلابهم.. أم خادم؟.. لا يختلف الاثنان في المعنى، كنت متيقنًا أنهم سيرموني كعظمة لكلابهم بمجرد أن تنتهي مصلحتهم معي، وكنت حريصًا على كسب بعض المال،

وكسب بعض العلاقات الجديدة قد تنفعني في قادم الأيام.

لقد كانت أسواق ومقاهي المدينة تغص بالقيل والقال، اليهود يتحكمون في الأيالة والانكشاريون يتفرجون في الأحوال، هكذا كان حديث الناس.

جلست في مقهى العرب، عند باب الدزيرة أتصنت وأجمع ما يقول الناس عن مقتل اليهودي، البعض تمنى له إقامة مريحة في الدرك الأسفل من الجحيم، وآخرون تمنوا أن يلحق به الداي وكل من في الديوان الذين أوصلوا مطمورة روما، كما كانت تسمى الجزائر، إلى المجاعة حتى أن الناس تجلس في المقاهي في انتظار أن تصرف رواتبهم ثم ينصرفون في المساء على أمل أن تدفع لهم في الغد وهكذا دواليك.

عمي أحمد البوسطجي يشتغل في القصر، فهو يربي الحمام الزاجل في بيت السلطان وكل يوم تتقاطع خطواتنا في الأزقة، يحاول دائمًا الاختفاء عن الأنظار من كثرة سؤال الناس عن رواتبهم. كما أن الناس يختفون منه لأنه يذكرهم بموعد دفع الضرائب، دَعوته إلى الجلوس على الحصير أمامي وقلت له لن أسألك عن الراتب فأنا راتبي مدفوع مسبقًا، ولا عن الضرائب فأنا لا أدفعها أصلًا، حاولتُ أن أستطلع رأيه فيما يحدث في البلاد من مجاعة وتقتيل، فقال: «رانا في وقت الخزيطلع فوق خوه حتى يجي مولاها»، ويقصد أن الفساد سيتراكم حتى يأتي

المنقذ أو المهدي.

والأكيد أنه سمع بدعوات ابن الأحرش الذي كان يُمَنِّي الناس بقيام دولة دون أتراك تارة في فصل الصيف وتارة في فصل الشتاء، وبقدرته على جعل بنادق الأتراك والكفار.

الماء بدل البارود

قال البوسطجي: أنت ترى الناس ووجوههم البائسة، لا أحد يشتغل ومن يشتغل لا يجد راتبًا يسد رمقه وفي الأسواق كل السلع من الهند والسند والصين ومن اليمن وحتى الصومال، لكن لا أحد يقترب من التجار نظرًا للغلاء الفاحش. أما إذا ذهبت إلى الأبيار وبئر خادم وبوزريعة فترى الجنود السابقون يبنون قصورًا بها خدم وحشم، فالأثرياء يزيدون ثراءً والبؤساء مثلنا يزيدون ذلًا ومهانةً.

فسألته عن اليهودي بوشناق الذي قُتل اليوم وسُحِبَت جثته في الطرقات ورُمي للكلاب، فقال عمي البوسطاجي: إن أبناء الكلاب آخرتهم للكلاب، فقلت: لِمَ تحمل كل هذا الحقد لليهود، فقال: أنظر إلى أفعالهم، البلاد في مجاعة بسببهم، قال لقد كنت في قسنطينة قبل أن آتي إلى المحروسة، هناك يتذكرون جيدًا أيام الباي مصطفى الوزناجي الذي كان قبلها باي التيطري، وقد فر من حكم الإعدام إلى بيت نفطالي بوشناق وبقي هناك ولا أحد يعرف مكانه، ولما عفى عنه الداي قَدَّم بوشناق رشوة كبيرة للداي كي يعين الوزناجي بايا علي قسنطينة، ولما أراد هذا الأخير تقديم هدية إلى زوجة الداي اتصل ببوشناق بعد أن عينه أمير سره ومستشاره وقائمًا على التجارة هناك في عاصمة الشرق.

ولأن اليهودي مخادع وماكر قدم حيلة ثمنها الحقيقي ثلاثون فرنك، إلا أنه قال للوزناجي إن ثمنها ثلاثمائة فرنك قديم ولم يكن للباي مصطفى ثمنها فسدد ثمنها مقدارًا من القمح بسعر أربع فرنكات للوزنة الواحدة، وكهذا حصل بوشناق على خمسة وسبعين وزنة قمح باعها إلى فرنسا بسعر خمسين فرنكا للوزنة فحصل على ربح ثلاثة ملايين ونصف فرنك.

ويشير عمي أحمد إلى أن قَتل بوشناق اليهودي اليوم لن يعيد للزوالية ثراء ولا يسد رمقهم، لكنه يعيد بعض الكرامة التي دنّسها كلاب اليهود الدايات وأعوانهم من الأتراك في الديوان فكلهم متواطئون على رأس الغلابى مثلي ومثلك،.

قلت له: إن مكانك ليس في مقهى العرب و إنما في الديوان، فضحكنا حتى دمعت عيوننا من هذا الوضع البائس، قبل أن يسألني ماذا أعمل في القصر، قلت له مازحًا: أنا الداي، فضحكنا قبل أن أقول: إنني غسال الموتى في القطار وأَجري بعض الصدقات وفطوري من الزردات التي تقام في ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، و أنا أجمع بعض الأموال التي يرميها أصحابها تبركًا بالأولياء في البرك والأحواض في الأضرحة، فأوصاني بجثته المتهالكة وبالستر عندما أكون بين يديه، .فقلت: قد أسبقك إلى الموت وتحضر جنازتي فأكثر الدعاء الصالح. أدفع كل ديوني، هنا قام البوسطاجي وبحلقه غصة عندما سمع قصة الديون، فجمع برنوسه المتسخ واختفى عن الأنظار وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

وهو يغادر أمسك بيدي شيخ هرم يبدو عليه كأنه مس من الموت أو كأنه خرج لتوه من القبر، خفت أن أضغط على يديه فأقتله، قال: الدنيا غدارة يا بني، اجلس أحكيلك حكايتي معها، لم يكن أمامي من خيار غير الاستماع إليه، قال إنه كان ثريًا جدًا يملك قصرًا كبيرًا في بئر خادم، وخدمًا وغلمانًا، لديه أربعة أولاد كل مرة يتخاصمون ويتشاجرون بالأيدي ويتسابقون لاستقبالي أنا وأمهم البكرية في بيتهم، وكنا نستجيب بشرط أن تدوم المحبة بينهم فنقيم عند من يرضون يوم أو يومين.. وظللنا على هذا الحال إلى أن جاءت أيام المجاعة التي بالتأكيد عشتها معنا وتعرف جيدًا مرارتها وقسوتها، فقد مرت علينا أيامًا صعبة جدًا، فَقَدتُ فيها كل ثروتي التي دفعتها في الضرائب والأتاوات والرشاوى، لكن كل تلك الأموال راحت كزبد البحر وبعت معها قصري وأنا اليوم أعيش مع ابني الصغير مع البكرية فقط، سألته عن أبنائه الآخرين قال أخذتهم دنيا الغرور«تخيل بعدما كانوا يتعاركون من أجل استضافتي أنا وأمهم، ها هم اليوم يمتنعون عن رؤيتنا حتى في الأزقة والشوارع، بعدما طردونا من القصر ثم البيت الذي استأجرته.

لكن الشيء الوحيد الذي يشدنا حاليًا في الدنيا هو ابني الأصغر الذي التقتيه ذات مرة بعدما استضافني في بيته، فقلت له شاكيًا من معاملة زوجته لنا، فلم تكن تطعمنا إلا الشيء اليسير، فقلت له «حسبت نفسي قطعتك من شجرة بني ثمارها بكرية من أصل الطيب، جغمة شربة من الصبح حتى تغيب»،

ففهم قصدي مباشرة، وعندما هم إلى البيت في وقت غير متعود عليه، وجد «نسيبتو العزيزة» متصدرة الدار ومائدة الفطور من كل ما لذ وطاب، طبق رشتة بالجاج وسلاطة وفواكه وأطباق من سمك ولحم مشوي، فقال: «البرمة نبات اليوم»، فردت عليهّ شافت الحناتة جاتّ، فرد و«البارح وشبيها بكات»، قالت: «شافت المشومة ما كبرت ماربات اوه جغمة من زمان فات»، ففهم ولدي حجم معاناتنا معها أيام المجاعة فطلقها في الحين ونحن نبيت في «بويتة» تكفينا أنا ووالدته إلى أن يفرج ربي.

قبل أن يختم كلامه بالقول: ساعات الإنسان يحس بالوحدة وسط الناس.. ساعات الواحد يكذب ويخبي ويقول لاباس.. ساعات نكتمو أحزاننا ونخرجو ضحكة صفرا.. ساعات بعد الفرح يجينا جرح على غفلة.. بكينا على فراق ناس حبيناهم.. ندمنا كي بكينا ناس جرحناهم.. هذا هو المكتوب تبكي قلوب وتفرح قلوب.. وثبت عقلك من هاد القوم بلاك تنعس بلاك تنوم، لازم تعرف كيفاش تعوم ورد بالك قوم النصبة، ثبت عقلك في كل يوم كونك فهم كونك مخدوم، بلاك تحسب الصغر يدوم ما تسلك غير الهربة، غير اللي يقولك واش تكون باش يصيبلك كاشي سبة.

قال هذه الكلمات وراح إلى حال سبيله بخطى مثقلة بعدما سمع صوت عجوز تنادي عليه من نافذة مشقوقة مقابلة للمقهى حيث يقيم، فكلماته وقصته مع أولاده أثرت فيَّ كثيرًا ورحت إلى البيت معكر المزاج لا أريد أن أتكلم مع أحد، خاصة

أني لا أقرأ «للزمان عقوبة» وتارك خيوطي على حالها تمشي وتسير من هم إلى غم.

في طريق عودتي إلى البيت، تذكرت بعد غفلة أنه كان لي موعد مع ريمون في المعبد اليهودي بباب الوادي، فقد طلب مني أن أحضر وألبس لباسًا أسود وأنا لا أضع لا عطرًا ولا كحلًا في عيناي حتى لا أجلب أنظار المارة الذين كانوا يتربصون بكل خارج أو داخل من المعبد، فاليوم سبت وهو عيد لليهود، قلت له أنا أصلًا لا أضع الكحل فأين لي بمال الكحل أو العطر، اللهم إلا رائحة البخور والكافور الملتصق بي من الجنائز والزردات والهردات في الأضرحة.

كنا في تلك الأيام في الربيع لكن أسواقنا خالية، والمرضى يبيتون إما في ضريح سلاك الحاصلين سيدي عبد الرحمان الثعالبي أو على قارعة الطريق طالبين الشفاء والصدقة، فالفاقة جعلت الغني فقيرًا لا يجد ما يسد رمقه، فالخزائن خاوية، والعولة التي دأب السكان على تحضيرها عند بداية كل سنة هجرية نفدت ولم تعد تكفي، إذ كان الناس يخبئون التين المجفف والعسل وزيت الزيتون والدقيق والكسكس والشعير، وبعض الدهان والكليل والخليع، لكن مع المجاعة أفرغت كل مخازن البيوت، ومع كل هذا اليهود كانوا يعيشون أيامًا ذهبية ويتفرجون على بؤس الناس وهم صانعوه، يذهبون للحج إلى تلمسان أو بشار، إلى مراكش دون عناء. كما أنهم كانوا يقيمون

الحفلات الموسمية في معابدهم في لقاءات دينية تختلط فيها السياسة والمال وهو الدين الثاني لبني إسرائيل.

خطواتي كانت مثقلة جراء البؤس الذي شاهدته على قارعة الطريق.. متسولون من أطفال وشيوخ ومرضى ونساء في كل مكان، ولصوص يحملون سكاكين ويبدو عليهم السُكر أو تحت تأثير العفيون يتربصون بالمارة كأنهم يبحثون عن فريسة سهلة.. أبواب المعبد كانت مغلقة وكلمة السر لفتح الباب كانت هاليلويا، هكذا أوصاني بالأمس ريمون.

دخلت وأنا أرمق أنظار المارة بالخارج وكأني سارق يدخل بيتًا لسرقته، الشموع في كل مكان والفوانيس مشتعلة بضوء خافت، دعاني ريمون للدخول والاقتراب.

كان يبدو مريضا، فقد كان مصابًا بالحلوة إنهم استقبلوا هذه السنة العديد من الحجاج، منهم من بيت المقدس والعراق ومصر وتونس وفرنسا، فقد تم الاتفاق على أن تكون مدينة الجزائر مدينة للحج اليهودي المعروف بالهيلولة، حيث يتم زيارة أوليائنا، يقول ريمون لتحقيق منافع كبيرة، كالتشافي من الأمراض المزمنة أو المستعصية وتحقيق الرغبات والأحلام وغيرها، خاصة ضريح «جاكيت» الذي قَدِم إلى الجزائر من إيطاليا ليفورنو بالتحديد في بداية القرن الخامس عشر ميلادي، وكان شخصية مميزة وفاعلة مثل بكري وبن زحواط الآن، قلت له: هذا احتفالكم أنتم، فلماذا دعوتني؟ وماذا أفعل أنا في وسطكم؟ قال: إن بن زحواط يريد أن يعرف أين وصلت

في جمع المعلومات عن خزنة الداي، لكن قبل أن أرد عليه، قال أسكت فالاحتفال قد بدأ.. توزعوا حلقات حلقات كأن على رؤسهم غربان من أجل أكل قصعة الكُسْكُس المعروفة باسم «المعروف» ووزع على الحجاج الزائرين والساكنين بمحيط المعبد عن زيارة الضريح أيام الهيلولة، يقوم الزواربِعِدَّة طقوس احتفالية وتعبدية، كالصلاة والغناء والرقص وإشعال الشموع وقص الشعروتقديم ذبائح التكفير، التي تعتبر من أهم طقوس الزيارة، فيتم ذبح الأبقار والأغنام والدواجن طبقًا لتعاليم الشريعة، فيقوم «الشوحيت» وهو الجزار الشرعي بفحص القربان ليتأكد من سلامته، وبعد ذبحه يفحص أعضاءه الداخلية، فإذا رأى خلوها من كل عيب يرفع يده اليمنى معلنًا عن ذلك، فترتفع أصوات الفرح والزغاريد ويبدأ الرقص والغناء، وهو ما استغربه كثيرًا، فالبلاد في مجاعة واليهود يرقصون ومبتهجون، لم أشأ أن أسأل صديقي عن ذلك مخافة أن يطيررأسي، فسؤالي استفزازي مثلي. وأضاف ريمون أنه حان موعد تقسيم أجزاء الذبيحة على الحضور، ولا يسمح لك أخذ بعضها إلى بيتك، بل يجب استهلاكها بعين المكان.

بعدما اندمجت في الحفل، عادت إليا الروح مستنكرًا وجودي بين هذا الجمع اليهودي وعِفتُ أن أخذ بعض القطع من اللحم لتناولها، خفت أن تصفعني الجنية السوداء فروحها لا تزال جاثمة على ذاكرتي.

من بين الطقوس كذلك طقس مزاد الشموع الذي يعتبر

أيضًا من أهم عادات الهيلولة، حيث تعرض الشموع على الحاضرين وتتم المزايدة عليها، وعائدات هذا المزاد تعود إلى صندوق الضريح، وليست الشموع فقط، بل وحتى أعواد الثقاب التي أشعلت بها هي مليئة ببركة الولي التي تحل على الفائز بها في المزاد.

وتقام في الهيلولة ولائم كبيرة كما تزخر بكثير من الأمور، منها الصلوات وترتيل المزامير والأطعمة الوفيرة والإفراط في شرب ماء الحياة، والخمر والرقص والغناء وإشعال نيران الفرح «شعالة» و إقامة الحفلات الفلكلورية الشعبية التي تقترب من الهرطقة. كما تكون هذه الحفلات مناسبة للإبداع الأدبي الفني سواء باللغة العبرية أو اللهجات المحلية.

قال لي ريمون إن الكثير من الحضور مسيحيون ولكنهم جاؤوا كمدعوين رسميين مثل القنصل الفرنسي والسويدي والأمريكي والإسباني وغيرهم.

ونحن نتحدث، أُغلِقَت الأبواب، لقد ظننت أنها من بين طقوس الهيلولة الكبيرة التي أقامها اليهود، لكن ريمون قال لي وهو يصرخ إنهم يهاجمون المعبد، قلت من؟ قال بني جلدك يهاجمون المعبد، لقد تم تكسير الزجاج وتحطيم الأبواب وتعرض كثير من الحضور للجروح فتزاحم كثير من الشباب اليهودي إلى الباب من أجل إحكام الإغلاق، لكنهم فروا بمجرد رؤيتهم رؤوس الهراوات وهي تتقدم نحوهم، فسقط بعضهم

فريسة سهلة أمام سطوة وسرعة المحتجين، الذين توزعوا على مختلف المنافذ وأغلقوا الطرقات لمنع اليهود من الخروج.

تأكدت بنظرة خاطفة أن ريمون وبن زحواط فرا من المشهد فحملت هراوة غليظة كان يحملها شيخ لا يقوى على الحركة، هراوة مصنوعة من الشحم الغليظ، صوتها وهي تهوي على أي شخص تحدث لديه هلعًا كبيرًا وعاهةً مستديمة، فقلتُ للشيخ دعني أقاتل نيابة عنك فهي فرصتي، لم أَدرِ كَم قتلتُ ذلك اليوم ثلاثة أو عشرة، كنت كلما قتلتُ أحدهم اقتلعت عينه كما كنت أفعل للقطط لما كنت صغيرًا، لقد رأيت بعضهم وهم يحترقون بالنار التي أشعلها الثائرون وهم يصرخون النجدة.. النجدة، كان منظرهم مقززومنفر.

كانوا رجالًا ونساءًا وشيبًا وشبانًا هجموا على المعبد وكل شيء يرمزلبني إسرائيل، محلات العطارة والخياطة شبت فيها النيران وبعضها حُطمت واجهاتها، لم يقاوم اليهود فهم جبناء، وفي اليوم الموالي عرف الطريق إلى الميناء زحمة كبيرة، خاصة أن كثيرًا منهم لم يَعُد يلبس ملابس اليهود السوداء، وهُم مَن أَوقَدَ ثورة السكان بالمكر والخديعة وإشعال الفتن، وكانت عرباتهم تنتقل بين الأزقة والحجارة تنهمر عليهم من النوافذ، فحتى النسوة كان لهم نصيب من الثورة.

انتقل جمع الغاضبين إلى دار السلطان، حيث كان أفندينا يتهيأ للخروج من مكتبه، حتى أحاطوا به من كل جانب، وظن أنها ستكون نهايته على أيديهم، خاصة وأن كثيرًا من الهراوات

تحمل آثار دم، فقال: هل تريدون تلويثي بهذه الدماء النجسة، فقال أحدهم: إن النجاسة تحيط بنا في كل جانب وأنتم يا أفندينا لاهثون وراء الزردات والهردات في العديد من الأضرحة هنا وهناك، لم نأت لنحاكم جنابكم نريد أن تتدخل لَدَى الداي مصطفى باشا وديو انه المعظم ليرفع عنا الغُبن ويرفع يد اليهود عن رقابنا، فأنت تعرف أننا في مجاعة واليهود يحتفلون بذبح الأبقار وأكل اللحم المشوي والكسكس وما إلى ذلك.

قال أفندينا: بارك الله فيكم إخوتي، شكرًا لكم على ثقتكم في شخصي، سأوصل صرختكم إلى الداي مصطفى والخزناجي، فهذه الأمور لا يُسكَت عنها، هيا انصرفوا ولا تخربوا ممتلكات المسلمين.

ورغم أن كثيرًا من الانكشاريين شارَكَ وسانَدَ الشعب في ثورته ضد اليهود، فقد أَمَرَ الداي مصطفى، فرقًا خاصة منهم بتأمين المعبد اليهودي وبعض ممتلكاتهم. كما تَكَفَّل بكري وبوشناق وبوشعرة بالقناصل الأجانب وحمايتهم طيلة أسبوعين، كما أَمَّنَ خروجهم إلى الميناء ومَنَع الاقتراب منهم.

قال الخزناجي لكبير الحراس: كل من علمت أنه نَهَبَ اليهود من الحمالين والبحرية وغيرهم يجب أن تقبض عليه وتصلب كل يوم عشرة منهم، وإذا نقص واحد من العشرة أصلبك مكانه فأخذ في قبض المسلمين وتصليبهم إلى أن صار كبير الحراس يقبض على من وجده متشاجرًا مع صاحبه ليكمل به عدد المصلبين.

من اليوم فصاعدًا كان على اليهود ترتيب أوراقهم من جديد، فحليفهم يوشِكُ على السقوط و أيامه معدودة، وسكان المدينة ضاقوا ذرعًا من اللصوص والانكشارية وشبح الحرب مع فرنسا يجثم عليهم، رغم عدم اهتمام السكان بالسياسة فكان مطلبهم الوحيد هو العيش دون وجع الرأس وكفى.

اضطر السكان إلى القيام بالتطوع ومساعدة الزبالين بعد عودة الهدوء لاستعادة جمال مدينتهم، فقد تحولت الزوبية إلى تلال وهضاب عند باب عزون وقاع السور. كما عاقب قايد الزبل بعض المتهاونين في النظافة بالفلقة أمام الماء حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وهي أن يضربهم عشر ضربات أو أكثر على راحة القدم وكان موقف من يضربون بالفلقة مثير للشفقة وضحك الأطفال الذين يشكلون حلقة حوله وهو يحاول طردهم بالشتم والسب وبالبصق في وجوههم، خاصة أنه لا يستطيع القيام والمشي على رجليه وحتى وإن حاول فإنه يسقط ويكون مثيرًا للسخرية مرة أخرى.

كان على السكان إعادة البهجة إلى بهجتهم فكان لهم ذلك، وساهمت النساء بإعادة إصلاح تلك المزهريات الخاصة بالحبق وإعادة غرس الياسمين في مختلف الجناين، وبلمسة نسائية أضحت الطرقات مُزهِرَة ومُنعشة لكل المارة.

وأكثر الأماكن التي يتم تنظيفها هي الأضرحة والمساجد، ففي أحد الأضرحة يتم نزع كل الأوراق المعقودة في أوراق الشجر ويتم إخبارهن أنه تم الاستجابة لطلباتهن.

دورو فاتحة في بستان قدها ولونها وجمالها من بعيد يبان، لازم على كل من حبها يقدملها من الهدايا قناطير وأطنان، ويحمد المولى ويقول سبحانك ربي يا حنان ويا منان أحفضها

الغسال في القصر

كنت أتسكع في العقيبة عندما جاءني ريمون اليهودي وقد بدا عليه التعب يخبرني أنني من اليوم سأعمل في دار السلطان غسالًا للموتى وقد دفع بن زحواط نظير تعييني سبعة أوقيات ذهبية وليالي حمراء لأحد الأعوان من أجل توظيفي، ففي المدينة كل شيء قابل للشراء والكل يعبد أوقيات اليهودي.. وقد أوصاني ريمون بالمهمة التي كلفني بها مقابل توظيفي، قائلًا الكَنز ثم الكَنز ثم الكَنز، حل عينيك مليح.

مَن يَقتُل مَن.. هل هي لعنة سيدي منصور؟ تلاحق الدايات فتعلق رؤوسهم إلى جانب رأسه في سور باب عزون أمام شجرة الدلب التي كانت تكلمه.. أم يد اليهود؟ التي تلعب بحبال الحياة وبالرؤوس فتجعلها معلقةً ما بين السماء والأرض.. كنا في المحروسة عندما نسمع أن الوالي أصدَرَ فرمانا بتعيين فلان في منصبٍ ما نفهم أن المعني سيكون رأسه معلقًا في السور في اليوم الموالي.

عند باب قصر السلطان استعجلني أحدَهُم للدخول، حيث وجَّهَني أحد الخدم المخصصين إلى غرفة توجد تحت الأرض، حيث قابلت قاتِل بوشناق ينتظرني وكنت أعرفه من قبل، لم

أعرفه من ملامحه وعينيه الصارختين وأسنانه البارزتين حتى تَكلَّمَ قائلًا: أدخل يا خريج السجون.. كم أكره اليهود هم سبب المجاعة التي ضربت المدينة منذ سنوات، وهم الآن يدفعون إلى قيام الحرب بين الجزائر وفرنسا بسبب الديون والقمح، ثم قاطعتُ كلامه وقلت أنت تعرف صراحتي و أني لا أخشى في الحق لومة لائم، أنتم الانكشاريون من مَكَّن لمن تسمونه الآن كلب اليهود و«رب الدزاير»، لقد كان مصطفى باشا كناسًا على باب وكيل الحرج ثم بايا على قسنطينة ثم أصبح خزناجيًا، ثم ساعده اليهود ليكون دايًا على الجزائر تحت أنظاركم وقد باركتم ذلك، واستفدتم من ثروته وسلطته، فأنتم متواطئون بشكل سلبي.

كان الجندي واسمه كوجق يمسك ورقًا بين يديه ومن شدة غضبه من كلامي مزق الورقة قائلًا كلامك عين الصواب، لقد تغطرس علينا اليهود في الديوان، فقد أمسكوا الزمام في الداخل والخارج.

سألته عن الورقة التي مزقها بين يديه، فقال هذا تقرير قنصل فرنسي جاء فيه «هل بإمكان البعض يتصور أن كل تجارة المتوسط ستقع بين يدي يهوديين جزائريين، الحق أن هذا صحيحًا ففي كل مكان نجد لهم وكلاء من مرسيليا إلى الجزائر، تونس، أزمير والاسكندرية وغيرها، إنهم يتمتعون في هذه الأمكنة بقليل أو كثير من القوة بحسب طبيعة الحكومات وحسب المصلحة التي كان عليهم السيطرة عليها. وكان اليهوديان

بكري وبوشناق يَعِدان الدول الأوروبية بالصلح وينفدونه وإذا استاؤوا من هذه الدول أعلنوا عليها الحرب، لديهم مفاتيح السجن فكل أسير يأخذون عنه الفدية وإذا أزعجهم تاجر طردوه «هل رأيت كيف يتحكمون في رقابنا»، يقول الجندي ليضيف: غدًا صباحًا سيكون لنا شأن آخر مع مصطفى باشا.

سألته عن الكيفية التي يمكنه بها التخلص من غطرسة اليهود وهل يخاف من المحاكم العسكرية؟، قال إن أمر المحكمة محلول، قبل أن يضيف: ادهن السير يسير، قالها قبل أن يصدر ضحكة ماكرة، إني احضر تدخلي لجلسة المحاكمة وقد خطر ببالي أن أقول لهم إني مصاب بنوبات من الجنون، وفي تلك اللحظة التي قتلت فيها بوشناق لم أكن في وعيي، ليضيف أنه يريدني أن أكون شاهدًا على ذلك بما أنني كنت في مسرح الجريمة، وبمجرد أن اقترح علي ذلك، جاءتني صورة بن زحواط وريمون كلبه الوفي، فاعتذرت للجندي وكان عليَّ أن أُحَضِّر حُجةً قويةً حتى لا أتورط في هذه القضية، فقلت إن المحاكم العسكرية لا تقبل شهادة المدنيين، خاصة أنني غسال في بيت السلطان وهذا الأمر يطعن في شهادتي، ويبدو أن حجتي أقنعت الجندي الذي كان مضطربًا ويفكر في مخرج من ورطته، وفي الوقت نفسه كان صاحبنا مرتاحًا نوعًا ما لأن هناك كرهًا عارمًا لدى الانكشاريين وقضاة المحكمة العسكرية ضد اليهود، خاصة ضد بكري وبوشناق.

لقد طلب مني الجندي كوجق المبيت معه وأن أعمل معه

على حمايته من اليهود الذين يتربصون به، فكنت بين أمرين، من جهة أنا أتقاضى أجرًا من اليهودي بن زحواط نظير معلومات أقدمها له دوريا عن الكَنز المزعوم، وبين طلب الجندي الذي أسس مع الأيام عصابة تتكون من قدماء الانكشارية تتربص بكل من تسول له نفسه العمل مع اليهود، كان لي الخيار في الانضمام إلى العصابة من عدمه، فقال إن الخيار ممنوع وقد عرفت السر فإما القبول أو الموت وقضينا الليلة نتسامر إلى غاية سماع صوت آذان الفجر من مسجد كتشاوة، فوجدت صعوبة كبيرة في الاستيقاظ، فقال لي صاحبي إن الشيطان ربما يكون بال عليك كثيرًا فلم تستطع الاستيقاظ، فقلت النوم وبعده تتفلسف.

في اليوم الموالي عقد مصطفى باشا لقاءً للديوان في دار السلطان، كان الداي منزعجًا من الأخبار التي وصلته عن مقتل نفطالي بوشناق، والثورة ضد حلفائه وأولياء أمره، وفي الليلة الماضية كان بوشناق الوالد في القصر يتوعد ويتهدد، فالإضافة إلى الديون كانت مسألة احتجاز السفن الصديقة لفرنسا والأسرى الأوروبيين تنغص حياته، وسط هذا الجو المشحون طلب خوجة الخيل الكلمة وهو يبرم في بعض الشعيرات في وجهه وقال يا مولانا إذا لم تسارع برفع أجور الانكشارية حالا فإني لا أضمن لك سلامتك من هنا لمنتصف النهار، فرد الخزناجي إن الخزائن خاوية وموسم استرداد الضرائب من الفلاحين لا يزال بعيدًا، كما أن الثورات ترهق الخزينة لأننا مطالبون دائمًا

بالدفع منها لإسكات الثائرين وقد سمعتم البارحة بحادثة حرق المعبد اليهودي وقد صرفنا أموالًا طائلةً من أجل تأمينه.

قبل أن يعيد خوجة الخيل أخذ الكلمة وهو يهم بالخروج، فقال: أنا لا أستطيع الجلوس مع من يُفَضِّل تجويع شعبه وجنده خدمةً لليهود و«رب الدزاير»، وأشار إلى الداي بإصبعه: أنت اخترت نهايتك وهذا لسانك الذي تشتم به الأتراك سنقطعه لك حتى تكون عبرة لغيرك. وهنا أغمي على الداي مصطفي فسارع الخدم إليه ليرفعوه إلى كرسيه الفاخر، أحضروا الطبيب هيا بسرعة، قال أحد الخدم، بعد أكثر من ساعة جاء الطبيب وكان شيخًا كبيرًا تفوح من فيه رائحة الخمر، فدخل وخدمين يشدان أزره من يديه وبدأ الطبيب في معاينة الداي، فقال أحضروا له بعض الثوم، حتى يسترد عافيته وأوصاهم بالراحة التامة للداي.

بدأ الباشا مصطفى يستفيق من غفوته وعندما فتح عينه رأى شيخًا هَرِمًا بين يديه، فقال: من هذا؟ وماذا جرى لي؟ و أين خوجة الخيل؟، أكيد سيغلق أبواب المدينة ويُحرقنا ونحن أحياء فيها، أعرف أنه متعطشٌ للدماء وسيقتلنا جميعًا، فأمر الجند بتحضير العربة فلم يجد أحدًا يستجيب لأمره، فقرر أن يهرول مسرعًا إلى سلاك الحاصلين ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، فهناك فقط يعرف أنه لا أحد يمكنه أن يقتله أو يصل إليه لإيذائه، لكن أغلقت في وجهه جميع الأبواب وعند

وصوله وجد أبواب الضريح مغلقة على غير عادتها من طرف الحراس الذين أوصدوها، فحاصره ثلاثة من الجنود من عصابة كوجق وضربوه على عنقه، فتطاير رأسه وخر جسده على الأرض ورأسه هناك على قارعة الطريق أمام دهشة الجنود وبعض حراس الضريح وبعض الغلابى ممن جاؤا لطلب الحاجة والدعاء والتوسل لسيدي عبد الرحمان الثعالبي.. وفي المكان نفسه الذي وضع فيه سيدي منصور، وُجد رأس مصطفى باشا متدليًا والدماء تتساقط منه فأُغلقت أبواب المدينة الستة، وأُعلن حظرًا للتجول بصفة تلقائية. و انتشر خبر مقتل الداي مصطفى بعدما قُطع رأسه ولسانه في الوقت نفسه، نظرًا لأنه كان يسب الأتراك وسلالتهم ويشتمهم عن بكرة أبيهم، كان يصفهم بالأجلاف والمنافقين، يُظهرون الورع والتقوى في العلن وهم أقرب إلى الفُحش في السر. وَهَمَّ العديد من الجنود إلى تخريب العديد من المحال التجارية، خاصة محلات العطارة والأقمشة التي يملكها بن زحواط وبوجناح، فأغلقت جميع الأسواق و أبواب المدينة وتوقفت القو افل التجارية واستقبال الوفود الرسمية طيلة أسبوعين أو أكثر حتى توجه الناس إلى أفنديا من أجل أن يتدخل لدى خوجة الخيل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها، فقد قتل احمد بن علي وهو الذي أوقف زحف بن الأحرش في قسنطينة، والعديد من التمردات في تلمسان وتاهرت.

لم تبك السماء لمقتل الداي، كان ألعوبة بين يدي بكري

وبوشناق، لا بل كان كناسًا في بلاد كل شيئ ممكن، هكذا كان يتكلم الجند عند باب القصر قبل أن يدخل أحمد الدذي شغل منصب دفتردار في وقت سابق وخوجة الخيل وقاد الثورة ضد الداي مصطفى وهو من أوحى للغاضبين برفع شعار لم نعد نعترف بحكومة الداي مصطفى، كما حرض خوجة الخيل للتضييق على الداي مصطفى وجعله يهرب إلى الضريح ومن ثم قتله. وسمح منصب الدفتردار بأن يكون لأحمد اطلاعا واسعا على مداخيل البلاد ومخارجها وكل حبة قمح تدخل الميناء إلا وأحصاها، لكن يعاب عليه أنه كان منفذًا مطيعًا للداي مصطفى واليهود خادمًا للدولة وفقط.

ودخل العديد من أعضاء ديوان مصطفى باشا المغتال، كانت نظراتهم حادة، فالبلاد على كف عفريت، كجثة دون رأس، قال أحدهم إن رأس الداي مصطفى كان يساوي كل رؤوسنا و أكثر فحضوره كان يكفي لتسيير دواليب الأيالة، البعض الآخر، قال لابد من استرجاع الشركات التي أسسها في مارسيليا وكانت خاصة بالتصدير ولقاء ذلك أضحى ثريًا أكثر من كل الدايات الذين تداولوا على دار السلطان.

وقال حارس إن الداي مصطفى تعرض لمحاولة اغتيال من قبل الجندي خوجة ذات جُمعة عندما كان يصلي، حيث وقف خوجة على منبر وكان مع اثني عشر شخصًا من عصابته فأطلق النار على الداي في المسجد، لكن الحراس أنقذوه من الموت فقبضوا على خوجة وجماعته.

في هذه الأجواء من النقاش الجانبي، عقد الديوان لقاءه و اتفق الجمع على انتخاب الداي أحمد وكان على قر ابة بالداي المغتال، فقد اكتفي هذا الأخير بمراسيم تنصيب مختصرة فر ائحة الموت كانت تزكم الأنوف، إذ ظلت الجثث في المحلات المخربة طيلة تلك المدة. كما أن مظاهر الخراب والزبالة عند كل زقاق في القصبة والأسرى تمردوا على الحراس وخرج كثير منهم قبل أن يُقتلوا أثناء عملية الفرار.

لقد مرت عليَّ أياما عصيبة كنت أشتغل فيها ليلا ونهارا، أساعد في حفر القبور وأغسل الموتى على عجل، حتى أن المقبرة لم تتسع للعدد الهائل من الجثث، وكان كوجق يزورني كل يوم ويخفف عني وطأة الأيام التي مررنا بها.. كنا نسكر إلى ساعة متأخرة من الليل، ذات يوم ودون خمر أحسست بدوار شديد وكأني أسبح في السماء، لقد ر أيت كوجق كأنه في كل مكان من الغرفة هنا وهناك وحتى في السقف، بدأت أسب في الداي والخزناجي وريمون وبن زحواط وحتى الأتراك فضربني كوجق بلكمة أحسست أن فقاعات من الصابون تحيط بي وأغمي عليَّ وظللت على هذه الحالة إلى الغد.

وقد سألت صديقي في اليوم الموالي عن سر الدوار الذي أحسست به، قال البارحة عرفت سرك وعن دورك مع بن زحواط وريمون، فحبة من الأفيون كانت كفيلة بكشف أسرارك، فقلت له رفع القلم عن ثلاث ومنها السكران والمزطول

حتى يرجعا إلى وعيهما، وحاولت إفهامه أن كل الكلام الذي قلته كان تخاريف وخزعبلات من سكران، لكنه ظل متحفظًا مني كأنه لم يصدق كلامي.

مع الأيام عرفت أن للجندي كوجق قائمة من المتعاونين مع اليهود، من بينهم ريمون وقد كلفني بمعرفة أدق تنقلات أحدهم وتصرفاته. كما كان متوقعًا خرج الجندي مثل الشعرة من العجين في قضية قتل اليهودي بوشناق، فقد استطاع أن يثبت أنه في لحظة القتل كان تحت تأثيرنوبة عابرة، خاصة وأن أغلب الجنود الذين استدعاهم القاضي وقفوا إلى صفه، وكانت النقطة التي أفحمت القضاة أن الجندي أحضر الحكيم الذي كشف على الداي مصطفى، كان يداوي عنده من تلك النوبات وقدم الحكيم تقريرًا مفصلًا عن حالته ملخصه أن القلم يرفع عنه دوريًا، فكان الحكم هو السجن الانفرادي لمهلة مؤقتة، ولما صدر الحُكم احتج بن زحواط وعدد من كبراء اليهود لَدَى الداي أحمد على الحُكم، فقال لهم إن قرارات المحكمة العسكرية غير قابلة للطعن و أنه ليس لديه سلطة لا على الانكشارية ولا على القضاة، واللعبة منذ البداية كانت نهايتها معروفة، فقالوا له «انت خضرا فوق عشاء» دون أن يحرك في الداي أي شيئ من مشاعر الغضب أو النخوة، فقد كان كلبهم الوفي هو أيضًا، إلا أنه في فترة حكمه قلل من نفودهم مخافة القتل من الانكشارية.

في اليوم الموالي التقيت بكوجق الجندي وقال لي إنه خلال

الأيام القادمة سيعود إلى الأستانة وعليه القيام ببعض المشتريات من ألبسة فاخرة ليظهر في مظهر الرخاء والترف أمام بني وطنه وليعجبهم، كما أنه سيعود ومعه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر وتحت ضمانة يقبلون في صفوف الميليشيا، ثم يتولى بنفسه تدريبهم على الجندية وتعليمهم واجباتهم الجديدة. وقال لي إنه لا يملك المال الكافي للرحلة وعليه القيام بشيء ما من أجل توفير المال، استغربت هذا الشيء الذي سيقوم به من أجل ذلك، قبل أن يؤكد لي أنه علينا القيام بسرقة بيت حسن الخزناجي المقابل لمسجد كتشاوة، قلت له ماهي خطتك في ذلك، فقال بعفوية «آتوا البيوت من أبوابها»، فقلت له مداعبًا هل رأيت لصًا يدخل من الباب لسرقة البيوت، فانفجر ضاحكًا قبل أن «ينبهني لوجود خداوج العمية، الفتاة الفائقة الجمال في البيت، قال إن رأيتها فلا تنظر إلى عينيها، فقد تبحر فيهما ويلقي علينا الحراس القبض ونعود من حيث أتينا. فقلت السجن، فقال مداعبا الأستانة، فقصة خداوج العمية كانت على كل لسان في المدينة ومعروف عنها شغفها الكبير بجمالها وأنها أول زبونة لابن العتقي الذي كان يزودها مباشرة بأغلى وأرقى العطور من الهند ودمشق، وأضاف كوجق أنه لديه بعض المال يكفي لشراء بعض الأغراض فعرض عليَّ مر افقته إلى سوق باب الدزيرة. فاشترى بعض العطور من دكان العطارة الذي يملكه بكري وأصر الجندي على أن يكون متنكرًا بوضع لحاف على وجهه عندما هم بالدخول إلى الدكان حتى لا يعرفه من قتل أحدًا منهم منذ أشهر، فدفع المال وَهَمَّ

بالخروج مسرعًا حتى مر بولكباشي على فرسه ويتبعه بعض الجنود يتفقدون السوق وبعض التحصينات التي تم تشييدها حديثًا، فقد اختفى مرافقي دون أن أنتبه لغيابه فأعطاني التاجر تلك العطور التي اشتراها صاحبي، فحملت الكيس متوجهًا بين الأزقة إلى بيتي وفي بالي صورة خداوج العمية، فقد حدثني عنها باقتضاب، مما أثار فيَّ رغبة كبيرة لتفقد جمالها عن قرب وأنا أهم بالدخول إلى الصحين وهي ساحة البيت، أصدرتُ صوتًا حتى ينسحب النسوة المجتمعات في السقيفة إلى بيوتهم، فقد كنت أقيم في بيت يسكنه ثلاث أو أربع عائلات، وقد عشت معه ولا أعرف أصلًا شكل نسائهم ولا بناتهم، فكن يختفين بمجرد دخول أي رجل ومع ذلك كانت أسرارهن وحكاياتهن تصل إلى مسامعي عبر أبنائهن وعمي السعيد الخباز.

لقد وجدت في بيتي بعض الكسكس والتين المجفف، قدمه لي أحد الجيران بعد أن قام بِخِتَان ابنيه التوأم الحسن والحسين، وقد اكتشفت فيما بعد أن الشيخ العيتقي التقى بجاري وأعطى له كيسًا من المال من أجل الإشراف على عملية الختان، كانت حفلة رائعة أقامها بهذه المناسبة، خاصة أن ذلك كان في ليلة القدر وذبح خروفان، أكل منها كل سكان الزنقة، وكانت فرقة الزرناجية وبابا سالم نجما السهرة. كنتُ لا أرغب في الأكل خاصة وأن خداوج شغلت بالي وكنت أرغب في تسريع الوقت حتى تحين ساعة السرقة والزيارة إلى بيتها.

و أنا أفكر فيها، دعاني كوجق الذي ظهر في الشباك كأنه طائر الغراب بأنفه المعقوف وشعره المتدلي على كتفيه وأسنانه البارزتان، حيث طرق على زجاج النافذة الخلفية، ففهمت أنه يريدني أن أخرج إليه وأعيد له عطوره التي اشتراها من بكري، فسألته عن سر غيابه في السوق عندما شاهد بولكباشي وفرقته، فقال إنهم أمروني بالتحضير للجولة الربيعية التي يقوم بها الباشا قبل أن تخطر على باله فكرة القيام بسرقة بيت الخزناجي في موعد الرحلة نفسه لتبديد الشكوك حوله، فقد كان الباشوات يقومون برحلة مرة كل سنة ير افقه فيها ديو انه الخاص الذي يشكل الحاشية، وكذلك أعضاء ديو انه الأعظم، ما عدا أغا اليولداش الكبير ونائبه بولكباش اللذين يجب أن يبقيا في مدينة الجز ائر لمر اقبة التحصينات والتأكد من إغلاق أبواب المدينة بإحكام. كما ير افق الباشا القُواد والسناجق وفرقة موسيقية كاملة وعدد من كبراء القوم، منهم قضاة و أئمة وتجار، وعلى بُعد نصف ساعة من المدينة بجوار حديقة مصطفى باشا، يوجد مكان في موقع حسن وله منظر جميل تقام فيه خيمة ر ائعة لاستقبال الباشا وحاشيته، وعندما يصل الباشا يدور الموكب حول هذه الخيمة دورة كاملة قبل النزول، ثم يقفز الفرسان إلى الأرض ويدخلون خيمة الداي، حيث يجدون طاولة مجهزة بأنواع المبردات والحلويات والمرطبات وبعد أكل خفيف تقام صلاة يعقبها ابتهال إلى الله ليحفظ السلطان ويرفع عدد العرب ويسعدهم ويقوي إيمانهم في حدود معينة حتى لا يتقاسموا الحكم مع الأتراك، وبعد الحفلة يرجع

أعضاء الديوان الأعظم وغيرهم من الشخصيات إلى مدينة الجزائر ولا يبقى في الخيمة إلا الباشا وحاشيته لتسوية قضايا البلاد ويفتح المقطاجي السجل ليعين الجنود الذين سيعينون للقيام بالحملات ولتكوين الحاميات، ثم ترتيب المعسكرات وتعيين الوحدات التي ستقوم بالحملات البرية.

لم يكن الداي الجديد أحمد مختلفًا في علاقته مع اليهود عن سابقه مصطفى الكناس، فقد تحول بعد أقل من عام على جلوسه في كرسي القصر إلى ألعوبة بين يدي بن زحواط وبكري، حيث عين جوزيف بكري على رأس الطائفة اليهودية بعد أن أقال ابن طيبي، رغم أنه لم يرأسها إلا يوم عشرين يوليو، وأعفى بكري وشركاءه من دفع ما تبقى من الضريبة التي فرضها عليهم من قبل، فقد أعلنت الأيالة بعد مقتل الداي مصطفى مليوني فرنك كدين لها على بوشناق، لكن كثيرًا منها اشتراه اليهودي دافيد دوران. كما فرض الداي أحمد على بني إسرائيل مبلغ أربعة ملايين فرنك، وبعد رفضهم تسديدها أودعت أسرة بكري السجن مع الأخوين موسى وجودا عمار، وكانوا جميعًا مسؤولين عن المصالح التجارية اليهودية، غير أن القضية وجدت حلًا، يقضي بدفع المبلغ بالتقسيط على مدى عشرين شهرًا بعد وساطة القناصل الفرنسيين والإنجليز.

لقد اندهشت من فطنة هذا الجندي التركي الذي يجمع بين الالتزام العسكري ودهاء لص محترف يفوق خبثه مكر اليهود،

لقد و افقته إلى التوقيت و أنا مغتاظ بعض الشيء، لأن العجلة أثناء عملية السرقة ستمنعني من التمتع بالنظر إلى أجمل كائن على وجه المدينة خداوج العمية وما أدراك.

في تلك الليلة اتفقنا على الالتقاء عند باب مسجد كتشاوة من أجل أداء صلاة الفجر، لتبديد كل الشكوك ثم تسلق سور عال جدًا، كان به صبارًا شائكًا على طوله، وبعده كان علينا عدم إيقاظ كلب مفترس، ثم تجاوز قاعة الحراس الذين غطوا في نوم عميق، وكان يبدو عليهم السُكر بما أن رائحة الخمر كانت تزكم الأنوف، ربما لأن الخزناجي كان يقيم بعض السهرات مع كبار التجار وأكابر القوم وحتى اليهود، خُطانا كانت تلتقي وتتشابك أيدينا بما أن النور كان خافتًا وقد لاحظنا أنه يوجد نور في إحدى الغرف، فقلت لكوجق: ابحث أنت عن خزنة المال ودعني أرى مصدر ذلك النور المنبعث من شمعة تكاد تنطفئ، فهرعتُ إلى الطابق العلوي وأطفأتُ الشمعة وهممت بالدخول، رأيت في الغرفة شمعدان ومرآة كبيرة وفراش كبير واستغربت من أن الفرش منزوع، كان صاحبه خرج لقضاء حاجته في بيت الماء، فقد لامست قاعدة الفراش فوجدته ساخنًا، و أنا أتفقد البيت، دَخَلت خادمة يبدو عليها النعاس الشديد تجُر معها امرأة في قمة الجمال، طويلة قدها مقدود وعيناها فناجين ومنعتني العتمة من التدقيق و أنا و اقف سارح الذهن حتى صرخت الخادمة سُرَّاق.. سُرَّاق، وأصيبت تلك الجميلة بالإغماء ووضعت يدي على فم الخادمة محاولًا إسكاتها، تقدم

حراس بسيوفهم المسلولة إليَّ، حاولتُ المقاومة بلكمتين إلى أحدهم لكنهم تمكنوا مني وربطوا يديَّ بالخلاخل، حتى إذا وصلت إلى صحين الدار وعند النافورة وإذا بالجندي كوجق اللص مكبل هو أيضًا ورابض على رجليه وعلى عينيه عصابة وآثار الدم المتساقط على لحيته الطويلة المصبوغة بالحناء بادية عليه، وعندما أحس أني أمامه والجنود يسحبوني، قال يا كلب من أجل غبائك تم القبض علينا، أكيد لقد هِمت عشقًا بخداوج ونسيت روحك في غرفتها، فقلت أبدًا هي أصلًا لم تكن هناك، لكن أنت أيضًا وجدت مكبلا قبلي، فقال إن الخزناجي قد أمر ثلاثة جنود بالمبيت أمام الخزنة ولما هممت بالدخول وجدت قدمي وقد وضعتها في وجه أحدهم فاستيقظوا وحملوا سلاحهم في وجهي وأشبعوني ضربًا، فقلت يعني لا مال ولا رحلة الباشا، تبًا لك ولكل من يعرف أمثالك، قبل أن يتدخل الحرس ويأمرنا بالسكوت ويقول مصيركم معروف ستبيتون في ضيافة العقارب والجرذان والديدان تحت الأرض، فقد كان سجن القصر ذائع الصيت وزواره كل يوم يزدادون، وكل من يدخله يصاب بعاهة في جسده وإما أن يفقد عينيه، أو يصاب بالجرب أوالطاعون.

انتقلنا من ظلمة إلى ظلمة في قبو تنبعث منه رائحة القذارة، أيام السجن جعلتني أسترجع ذكرياتي مع الطفولة التي قضيت جزءًا منها متنقلًا بين مدينة الجزائر وقسنطينة، حيث كانت تقيم عائلة مربيتي خالتي الطاوس، كنا في بيوت لا تختلف كثيرًا

عن هذا السجن، إذ تُبنى المنازل في القرى الصغيرة أو في الأكفار بالأخشاب والقصب يربط بعضه ببعض ولكل منزل أربعة أوجه، وتفرش أرضه بمادة البناء نفسها، ثم يحصن الكل بخليط من الطين وروث البقر لمنع المياه من التسرب، وعلى السطح يُزرع نوع من العشب يسمى الذيس، ولا يزيد ارتفاع هذا البناء عن قامة الرجل، ثم إن الأهالي يجمعون الحشائش وأوراق الأشجار فيدخرونها لتغذية الحيو انات عندما يسقط الثلج وتأوي هذه المساكن في الوقت نفسه النعجة والبغل والدواجن والكلاب والرجال والنساء والأطفال، كلهم يعيشون في مكان واحد.

لقد عشنا حياة ضنكى وكنت أفشي غليلي في القطط التي أترصدها و أنزع عيونها و أتركها في الظلام وهي تعوي ألمًا و أنا أتفرج عليها ضاحكًا، وتعرفت على العديد من اللصوص في سجن قسنطينة بعدما سرقنا بعض الدكاكين في حارة اليهود في قسنطينة، وها أنا اليوم في سجن الداي وقد اتفقنا على تكوين عصابة تتحكم في أنفاس سكان العاصمة انتقامًا من سلطة الداي وكل من يرمز إلى سلطته وكذا اليهود.

قضيت في السجن أكثر من شهر، لا أحد سأل عني ولم أستفد من أية قفة، فقد كان عشمي أن يتذكرني الجيران على الأقل بقفة أو زيارة كانت ستخفف عني تلك الوحشة، وذلك اليُتم الذي أحسست به لأول مرة في حياتي، أحسست بعزلتي وعددت بعض الأشخاص الذين فعلت فيهم الخير، وقلت ربما

يتذكرون خيري ويأتون لانتشالي من هذه القذارة... لا أحد وحدك أيها الغسال من يواجه مصيرك لوحدك و أنا أفكر في الماضي، وإذا بأحد زبانية السجن يناديني وكان أصلع قوي الجثة، مفتول العضلات، ظننته سيقول لي إنه لدي زيارة وإذا به، يقول لي لقد تم الإفراج عنك وعن صديقك كوجق الذي يوجد في سجن منفصل في سجن خاص بالجنود، بعدما دفع شيخ مجهول قدم منذ يومين إلى هنا وترك كيسًا من قطع ذهبية نظير إطلاق سراحكما، سألني الحارس هل تعرف هذا الشيخ، قلت نعم إنه الشيخ العيتقي كان بمثابة جدي، فأنا ابن عائلة غنية وثرية، لكن يدي خفيفة قلتها للعساس حتى إذا عُدنا إلى السجن مرة أخرى يكرم مثو انا، فنظر إليَّ الحارس من فوق إلى أخمص قدمي وكأنه يقول في نفسه «باين على رمتي بأني ابن عائلة كبيرة يا خي وجه البخس».

خرجت من الأسر بمشاعر مختلفة.. رغبة في التوبة وأخرى في الانتقام وفي القتل، خرجت متعطشًا للدماء والبطش، وفي حلقي غُصة من هذا القدر الذي يدفعني من القصر إلى السجن كأني هويت من السماء إلى الأرض، كنت أترصد تلك النظرات المستهجنة لمنظري، فقد كانت ملابسي ممزقة ورائحة جسمي لا تطاق، شعر رأسي كثًا ويصل إلى كتفي، فهرعت مباشرة للحمام، وقبل أن أهم بالدخول نظرت إلى أعلى الباب حتى أتأكد من التوقيت الخاص بالرجال، حيث كانت توضع فوطة متسخة في فم الباب لمنع الرجال من الدخول فدخلت، حيث

ألقيت بجثتي في البيت السخونة، فبدأ العرق يتصبب مني كأن أوساخ السجن وقذارته وهبت لها الحياة لتموت بين قطرات الماء الساخن.

بدأ جسمي يستجيب لحركات الكياس المدعو الموتشو، الذي جاء وصوت القبقاب يدوي الحمام وكان يشبه غسال الموتى، بل يشبه الموت نفسه، يقوم بحركات بيده فائقة الدقة في كل أنحاء جسمي فيفكك عقد السنين في الجسم ويبعث فيها الراحة والحياة من جديد، سألني هل عُدت من الموت، أم من المقبرة فكانت عضلاتي مقبضة ووجد صعوبة كبيرة في فركها قبل أن استلقي على حصير يبدو نظيفًا عند مدخل الحمام فنمت كرضيع بين يدي والدته، ولم يكن يهمني شيئ في دنيا الجزائر، إلا رغبة في زيارة الشيخ القنيعي الذي فك أَسرِي بماله، وحز في نفسي أن ذلك اليهودي بن زحواط لم يسأل عني، رغم أني جمعت معلومات هامة عن الكَنز المشؤوم، وعرفت طريقًا مخفيًا للوصول إليه.

طرقتُ باب الشيخ القنيعي، فخرجت إليَّ خادمة زنجية صغيرة ذكرتني بالجنية إياها، قلت لها أنا علي الغسال وأريد رؤية الشيخ، بعد هنيهة عادت وقالت إن الشيخ غير موجود، لقد ذهب إلى البليدة عند بعض الفلاحين الذين يعملون لديه، وكذا للإشراف على جمع أموال الزكاة من بعض المحلات التي يملكها من عطارت وإسكافية ونحاسين وباعة المناديل والورد، وأضافت أن زلزالًا قويًا ومدمرًا ضرب البليدة وهناك العديد من

الخسائر البشرية والعديد من محال الشيخ تحطمت فذهب العتقي لتفقد الوضع والوقوف إلى جانب عائلته ومحبيه.

تأسفت لعدم تمكني من ملاقاة الشيخ فهو الوحيد الذي فهم حاجتي وأعطاني ما أريد دون أن ينتظر مقابل، فنظرة منه تعيدني إلى صوابي وتفقدني طيشي وتعيد عقلي إلى صوابه في مدينة أضحى العاقل فيها حيران، حائر من بؤسه، حائر من كناس أصبح يتحكم في الرقاب، ويهود يبيعون ويشترون من عَرَق الجزائريين ويتكلمون في المحافل الدولية باسم المحروسة.

كنت أرغب في مساعدة جاري عمي السعيد الجيجلي، أمين الكواشين، كان لديه عشر بنات، بعضهن تزوجن وأخريات يتنظرن المكتوب أو عريس الغفلة، كن بشعات، الناظر إليهن يحسبهن ذكورًا خرجوا لتوهم من معركة، جاءني مرة عمي أحمد قبل وفاة ابن القنيعي، يطلب مني على استحياء خلطة الفحولة التي يأتي بها من الصين، وقد حدثته أني التقيت بالشيخ القنيعي ذات يوم، كان يرغب في أن يكون له ولد يباهي به أهل الدويرة، قال إن خالتي العلجية زوجته راحت أمس إلى سيدي علي الزواوي، كانت هناك شجرة مقدسة، شجرة زيتون متشابكة الأغصان، الناس يسمون تلك الشجرة بماما زينب، ظلت لسنوات تعقد قطع من القماش بعد أن تبخرها بالبخور والجاوي، لكن ذلك لم ينفع، حيث كلما اقترب منها تأتي بعد تسعة أشهر فتاة بشعة تأكل من رأسي، يا خويا علي لا أريد أن

تتوسط لي عند القنيعي لشراء الخلطة، وإذا كان ولدًا سأذبح كبشًا سمينًا وأعطيك طبقًا من الطمينة باللوز. وأضاف أن العلجية جاءت البارحة وهي منهارة، قالت له إن ركبتيها تثاقلت لحد أنها لم تعد لديها القدرة على الحركة نتيجة الطواف المتكرر حول ماما زينب، لقد قبلت كل جذوعها، كان الضريح مليئًا بالنساء، فهذه تريد أن تنجب وأخرى الزواج وأخريات يرغبن في عودة أبنائهن الذين راحوا للجهاد مع الر ايس حميدو منذ مدة ولم يتلقين أخبار عنهم.

قلت له مازحًا: ربما الخبز الذي تعده في المخبزة يكون وراء زيادة عدد البنات في المدينة وتقلُص الفحولة بين الرجال، قال: أنا وين و انت وين وقد احمر وجهه من كلامي، قلت: إن البسكرية ربما يكون لديهم الحل لمشكلتك، انزل إلى فندق الزيت أو جامع القبايل في حي باب عزون واسأل عن علي البسطي، لديه خلطة بسكرية من حبوب الطلع والعسل الحُر، قال: لقد جربت كل شيء يخطر ببالك، حتى أنني أكلت ذيل كلب وكسكس مفتول بيد طفل ميت، ومع ذلك بقي الحال على حاله، قبل أن ينتهي من كلامه، غلبني الضحك فازداد غضبه مني فحمل برنوسه غاضبًا وهو يُتمتم كأنه يشتم فيَّ، ومن ذلك اليوم عاهدت نفسي على مساعدة هذا الرجل علَّه ينسى إغضابي له في تلك الليلة.

مباشرة بعد ذهابه من عندي، سمعتُ صراخًا، كان شجارًا بين رجل وزوجته في الدويرة، كان لديَّ فضول أن أعرف مصدر الصراخ والضرب وإذا به سيد الكواشين وأمينهم يُضرَب

بالشبشب من العلجية التي كانت سمينة وثخينة، ويبدو أن الخميرة فعلت فيها المفعول فوزعت قوتها وجبروتها في جسد عمي أحمد وهو يصرخ ويعوي كالقطط المتشردة.

خرجت كل نسوة الدويرة من أجل التصنت وفك الخناق بينهما، قالت إحداهن: «عيب عليكم الشيب والعيب و أنت تضربي سيد الرجال في دارو هبلتوا عيب عليكم ما تحشموش جمعتوا عليكم الجيران وجبتوا ليكم الفضايح»، تم فك الاشتباك وكل واحد دخل لدارو مع شتائم هنا وسب هناك وأطفئت القناديل ونام الجميع بعد نصف ساعة. في الحقيقة كانت مشاجرات يومية موضوعها الأزلي أنت تجيبي غير البنات، مسكين عمي أحمد.

في اليوم الموالي استيقظ وعيناه مزرقتان ولم يذهب إلى الكوشة مخافة الفضيحة، جاءه بعض عماله، فقال لهم إنه مريض بعض الشيء وقد يغيب عن المخبزة أيامًا حتى يتعافى. مباشرة بعد عودته إلى الكوشة، قابلته مجموعة العمال لديه فقالوا إن الخزندار أغلق المحل طيلة أسبوع كامل نتيجة شكوى قُدمت من بعض السكان يشكون وجود علاقة بين الخبز وحمل الزوجات للبنات دون الذكور، فاتجه عمي السعيد مباشرة إلى الخزندار وهو يحمل بعض الخبز والاستدعاء. سأله الخزندار عن عدد بناته فقال عشرة، ومن أين يشتري القمح والزيت وكل أدوات إعداد الخبز، فالأيالة تفرض على الكواشين شراء كل الأغراض من خزائنها، احتار في الإجابة وخاف من العقوبة

وقطع رزقه إذا ما حاول المراوغة في الكلام أوالكذب، قال أمين الكواشين إن أسعار الأيالة غالية جدًا مقابل الأسعار التي يعرضها اليهودي بوشعرة، يقول الخزندار، على الأقل القمح مضمون ولا يؤثر على إنجاب البنين أو البنات. وأصدر الخزندار فرمانًا بإغلاق جميع محلات عمي السعيد إلى حين خلو مخزنه من القمح عبر تقديمه للماشية وتغريمه بدفع غرامة.

... نسوة الدويرة لا تدعن صغيرة ولا كبيرة إلا وخضن فيها، فاطمة الوقابة لديها كل أخبار الخطابة والشو افين والرقاة، فهي طيلة اليوم معلقة في النافذة، في حين أن أختها سامية البايرة تهيم بكل شاب مفتول العضلات وحتى الشيوخ ذوي المال الوفير، وهي أيضًا تتحسس حديث الجدران تترقب كل طرق في باب أو خطوات قرب الدويرة، تعرف من جاء ومن راح. تقول فاطمة الوقابة إنها تعرف جيدًا سر الشِجَار بين العلجية وعمي السعيد الخباز، فعلى عكس ما كنا نظن أن السبب هو خِلفة البنات، و إنما ابنتهم نفيسة التي دخلت في حالة نفسية مضطربة لم يستطع والديها فك طلاسمها، إذ تدخل في نوبة بكاء مستمرة وعندما تروق نفسيتها ويسألها عمي السعيد لِمَ البكاء تكتفي بكلمة واحدة لا شيء، ثم تخلد في صمتها ساعات وهي مشتتة الذهن بعيدة عن و اقعها. أما والدتها علجية، فقد صنعت لها حرزًا علقته على رقبة نفيسة بعدما بخرت البيت سبع مرات ووضعت قطرات من القطران في جنبات البيت لطرد الجنون والأرواح الشريرة، وهي تفعل ذلك حتى وقفت

الأختين البايرة والوقابة عند باب الصحين يرمقان بنظراتهن المشككة في كل شيء، نفيسة وحركاتها النسائية، فقد شاهدها ذات مرة وهي تكتب رسالة وتعلقها في رجل حمام زاجل دون أن يعرفن فحواها وخاصة لمن وجهتها، والخوف كل الخوف أن تكون لعريس الغفلة، فالحديث عن العريس يصيبهن بحالة من القلق وتصيبهن القنطة من ذلك، قالت إحداهن للعلجية: «غير الخير وشبيها نفيسة»، فنظرت إليهن باستغراب وصكت وجهها وهي تتمتم، فقالت: العياذ بالله حاجة ما تخفى عليكن، ربي يسترن من عيونكم، فقالت البايرة: ربما تحسب نفسها نفيسة بنت الداي حسن التي توفيت منذ مدة بعدما أغرمت هي وأختها بالرجل الوسيم نفسه،إذ لديهما الأعراض نفسها، فنفيسة بنت الداي حسن وأختها فضلن الموت في صمت وهن في ربيع أعمارهن وفضلن الصمت على البوح بحبهما للشخص نفسه، فقالت علجية لا زلتما تؤمنان بالأساطير القديمة، اذهبا ولتحل عليكن لعنة سيدي الباهان ولا ترين يومًا أبيض في حياتكما يا بومات الدويرة..

في المساء حاولت خالتي العلجية ترطيب الأجواء بقضاء سهرة في سطح البيت فوضعت صينية فضية بها إبريق شاي وبعض أوراق النعناع وكؤوس وأوراق تحمل فأل خير في بوقالات ترفع بها معنويات ابنتها نفيسة وجاراتها البايرة والوقابة، قالت إنها اليوم ستحكي قصة زفيرة تلك المرأة الفاتنة زوجة آخر الأمراء قبيل دخول العثمانيين الأتراك إلى مدينة الجزائر

ويدعى سليم بن التومي، الذي قالت بعض كتب التاريخ إن اسمه هو سالم التومي، آخر أمراء الثعالبة ويبدو أن بعض المؤرخين استكثروا عليه لقب الملك، وقالوا إنه كان مجرد أمير لا غير!! المهم «سي سالم» حاكم الجزائر حينها وتحديدًا عام ١٥١٦ وجه دعوة للأخوين القرصانين عروج وخير الدين بربروس لطرد الإسبان الذين تكالبوا حينها على ساحل شمال إفريقيا الغارق في النزاعات بين إمارات متناحرة تُعلَن وتُقام داخل حصون صغيرة، وبلغ الوهن بتلك الكيانات الواهنة أن الإسبان حكموا مدينة الجزائر من فوق صخرة صغيرة عليها محمية يقيم فوقها بضعة جنود إسبان وبعض المدافع مصوبة باتجاه الجزائر العاصمة حالياً وفرضوا على حكامها الإتاوات وهي جزيرة الليبانت.

لكن خير الذين بربروس الذي يوصَف بأنه قرصان مجهول النسب حينًا ومجاهدًا فاتحًا من أصول تركية عريقة حينًا آخر، سرعان ما تغلب عليه طبع القرصان، ويقال - والعهدة على الرواة - : أن خير الدين ما إن وصل إلى الجزائر العاصمة قادمًا إليها من جيجل، حتى أمر بقتل حاكم الجزائر الفعلي «سليم التومي» غيلة في قصره، وطمع في الزواج من زوجته الحسناء «زفيرة» التي رفضته و أبت أن تتزوجه، وقيل إنها كانت فاتنة الجمال ومضرب الأمثال في الحُسن والأناقة..

وعلى اختلاف الروايات فإن نهاية الملك سليم بن التومي

الأمازيغي آخر ملوك الثعالبة كانت مأساوية، حيث يَروي بعض الرواة؟؟؟؟؟

تقول علجية آن «بابا عروج» كان قوي البنية، ويزن أكثر من قنطار مثلي وفقد إحدى ذراعيه في معركة ببجاية.. في حين كان سليم بن التومي نحيف البنية كعمكم السعيد، وقد خطط عروج العملاق بعد أن أعماه الطمع في السلطة والجمال لاغتيال سليم النحيل فأمسكه عروج بقبضة من يده الوحيدة وأرداه قتيلًا في الحمام الذي دخله حاكم الجزائر للوضوء، استعدادًا للصلاة وعقب الجريمة أشاع عَروج أن حاكم الجزائر انزلق في الحمام فمات والسلام. و انتهت السهرة وظلت الوقابة والبايرة تتوهمان في حسن زفيرًا وتنتظران أن يأتي الفارس شبيه عروج ليأخذهما بعيدا عن البؤس و«الميزرية» التي كن يعشنها كل يوم.

طلعت للجبل لقيت الرومية، سكنت قلبها وذابت في عينيا،
قلتلها تكفيني بنت بلادي وبالي بعيد على البر انية.

بيتان يفك شفرة الكنز

في قصر فرساي بباريس، في الضفة الأخرى من المتوسط، خرج ايف بيتان لتوه من مكتب نابليون، وقد أمره بمهمة في غاية السرية، هي إعداد دراسة مسحية حول مدينة الجزائر، ومراكز ضعفها وقوتها في أجل أقصاه ثلاثة أسابيع، كانت التقارير حول الوضع عن المحروسة مليئة بالأساطير والمخاوف أكثر منها وقائع حقيقية، وأكثر الأشياء التي كانت تستهوي الجنس الجرماني هي قصص الكنَز وخزنة الداي التي ألف حولها خُرافات كان أطفال أوروبا ينامون ويستيقظون بها، أموال ومجوهرات وأحجار كريمة تعيد للقارة العجوز وقارَها وسطوتها على العالم.. والمحظوظ هو من يملك زمام المبادرة ويأخذ مفاتيح الخزنة، لكن نابليون أراد أن يلعب دور المُتأني الدارس لكل خطوة يخطوها في هذا المسار.

سارع بيتان إلى مكتبه في القصر وقد طلب من القائم على المكتبة كل ما يتعلق بذلك البلد المجهول الجزائر، لم يفهم عندما اطلع على تقرير حرره في عز الصيف محافظ للعلاقات التجارية في سافون مكامن القوة.

وطلب بوتان من الحاجب إحضار النظارات الخاصة به في محفظة كانت مرمية عند الباب من شدَّة حرصه على أداء المهمة، فهو ابن حداد ويعرف أن الحديد يُضرَب ساخنًا حتى

يستوي، من أجل ذلك كان يُجري أبحاثه في مكتبه ليل نهار.

وجاء في التقرير «لقد اتخذت هذه الأيالة يقصد الجزائر منذ بضعة أشهر موقفًا من شأنه إزعاج التجارة بوجه عام، وفتح أعين الدول البحرية ككل والأوروبية أخيرًا. ففي الوقت الراهن، فإن المتوسط معفن بإحدى عشرة سفينة من أسلحتها، هي فرقاطتين، واحدة منها ذات ٤٦ مدفعًا والأخرى ذات ٣٦ مدفعًا، وستة شبابيك و اثنين بولاكروبريك واحد فهي لا تحترم أية راية. لقد وَقَعَت ضحية لها عدة مراكب تابعة لمختلف الأمم لحد الآن. وأهمها قيمة فرقاطة برتغالية ذات ٤٤ مدفعًا و ٣٥٠ رجلًا من طاقمها، إن القائم على تسيير شؤون الجزائر (يقصد الداي) هو في حالة هيجان، إذ هو يعتقد بكونه في المستوى، بتوقيفه لعدد من المراكب الفرنسية وإظهاره لادعاءات حمقاء بكراهية سكان البلاد البربرية، للأوروبيين بوجه عام وقسوتهم و انعدام الإنسانية لديهم هي على أشُدها. لقد حانَ الوقت لأوروبا وهي سيدة العالم ألا تبقي أسيرة على أبوابها، وهذا العمل العادل الذي تُطالب به الإنسانية بصوت عال هو عمل مدخر للبطل الذي منح السلم للأمم وحدد وإلى الأبد المكانة المرموقة لفرنسا. إن قسوة سكان البلاد البربرية هي قوة زائفة وظرفية، وسأثبت ذلك لكم بالكلام عن الجزائر.

إن إقامتي - يقول المحافظ - لمدة خمس سنوات (في حالة أسر) في هذه البلاد ورحلاتي المتعددة على السواحل، وفي داخل

البلاد ودراستي للغة العربية قد مكنني من معرفة النواحي والنظام الحكومي وقوة البلاد وعادات سكانها.

إن القائم على شؤون البلاد أو الداي ينتخب رئيسًا من طرف الديوان المكون من ٨٠ عضوًا وهذا الديوان هو مجلسه ولكن ليست سلطته إلا عند الانتخابات.. و أقاليمه مقسمة إلى أربع مقاطعات يحكمها البايات، وهم يعينون في مناصبهم لمدى الحياة ولكن حياتهم رهن في يد القائم على أمور البلاد، كل مقاطعة مقسمة إلى نواحي وكل ناحية على رأسها حاكم وكل مجموعة من السكان (قبيلة) يحكمها قائد.

لكن رغم ذلك تُنتج كثيرًا من القمح والصوف والجلود والعسل والشمع والكرموس، كما تتوفر على مراعي هائلة وتنتج المواشي ذات القرن وذات الصوف وكذلك الدواب من كل نوع... خاصة الأحصنة الرائعة.

ونستطيع القول أنه لا يوجد أي شيء لديهم ينبئ بوجود حالة لتمدن ما، فهم لا يعرفون المطبعة والفنون الميكانيكية، والمهن الحرة يقوم بها اليهود ولا يوجد عربي واحد يهتم بها فَهُم يُمضون وقتهم في التدخين وتعاطي الكحول والمخدرات وركوب الخيل أوالبقاء في سراياهم في حالة كسل وفراغ. والأصليين هم أهل البلاد مغرمين بالخيول وعلى ذلك فهم لا يخدمون، إلا في سلاح الخيالة. أما المُشاة فهي مكونة كلها من الأتراك.

لقد أصبحت هذه الدولة ذات بأس شديد بفضل مساعدة الأوروبيين الذين يزودونهم بالوسائل لكي تحاربهم وذلك منذ حوالي قرنين، بالفعل فإن كل الدول الأوروبية تقريبًا أصبحت من تلقاء نفسها مُدانة بدفع الجزية للجزائر، فواحدة تزودها بالسُفُن والأخرى بالمدافع وهذه بالقذائف والبارود، وكلها تقريبًا بالمال والسلع والأشياء الثمينة الأخرى.

لا نستطيع أن ننكر أن الجزائر تشكل قلعة حصينة، بسكانها الذين يتجاوز عددهم مائة ألف نسمة أولًا، ثم بحصونها بعد ذلك وبطارياتها المزروعة بالمدافع، وعلى ذلك فلا يجوز تصور إمكانية مهاجمتها من جهة البحر.

ففي عام ١٧٧٥ نزل الإسبان بقوات مكونة من عشرين ألف من المشاة وألفين من الفرسان، وكانت خُطة الهجوم قد أُعدت إعدادًا جيدًا، لكن التنفيذ كان سيئًا بسبب الخلاف الذي دب بين اورللى قائد القوات البرية وكاستيقان أميرال الأسطول. وفي عام ١٧٨٣_١٧٨٤ هاجم الإسبان من جديد من جهة البحر ولكن بعد أن استهلكوا كمية كبيرة من الذخيرة انسحبوا دون أن يتمكنوا من أخذها أو تخريبها.

ولكي تُكلل حملة ضد الجزائر بالنجاح، يجب حشد ما بين ثلاثين إلى خمسة وثلاثين ألف رجل من أحسن القوات من مدفعه، في نسب ملائمة فشواطئ تنس بمعنى ساحل غرب الجزائر تبدو لي أفضل موقع لمكان الإنزال.. فالجزائريون

لم يستعملوا أبدًا مدفعية الميدان، وإذا كانت الاعتبارات السياسية لا تسمح بالقضاء على هذه الحكومة، فإنه يستلزم إجبار حاكم البلاد على تسليم كل الذهب الذي تحت حوزته وتجريده من كل سفنه الحربية وإلزامه بعدم تملكها أبدا للقيام بالقرصنة وإجباره كذلك على تحويل أقاليمه إلى دولة متمدنة ومشتغلة بالتجارة.

وأن أقل مكسب نحصل عليه (بالهجوم على الجزائر) وأُكرر ذلك، هو الاستيلاء على الملايير التي جمعها الحُكام والتي يحتفظون بها، فلا يمكن لهم تهريبها عن طريق البحر لأن الميناء سيكون محاصرًا كما أنه لا يستطيع حملها معه (الداي) عن طريق البر، ذلك أنه، إلى جانب كون الجيش الفرنسي سيقطع عليه كل اتصال مع الداخل، فإنه سوف لن يغامر بالإلقاء بنفسه في هذا الطريق بسبب انعدام الأمن، وعلى ذلك فإن أية هزيمة تلحق بالجيش التركي تكفي لتجعل سكان البلاد يجردون السلاح ضده «الداي» ويُصبح دون حماية ولا قوات في وسطهم.

استغرب بوتان عند الانتهاء من قراءة التقرير من العديد من النقاط التي وضع تحتها خط أحمر، قبل أن يتذكر أن ذلك الحبر الذي يكتب به مصنوع من إحدى مدن الجزائر وهي بجاية.. لقد خط خطوطًا ودوائر في التقرير منها كلمة الكَنز واليهود قبل أن يَغُط في نومٍ عميقٍ.

في اليوم الموالي، وفي الصباح الباكر، انتقل بعربة تجُرها أحصنة سريعة إلى أحد أحياء باريس، حيث توجد شركة اليهودي بكري للتجارة، فقد كانت لديه معلومات عن قضية الديون والقمح، والكُره الذي يكنه بكري للداي أحمد، رغم أن هذا الأخير يحاول إرضاء الجميع ويتفادى الصدام مع الفرنسيين واليهود في الوقت نفسه.

كان الجو حارًا.. وداخل مكاتب الشركة كانت الحرارة أشد، في الحائط كانت لوحة لهيكل سليمان، بعد «البونجوروالشالوم» المتبادلة، نظر بكري إلى ضيفه من رأسه إلى قدميه، وهمس لخادمه بإحضار مشروب يليق بمقام بيتان الذي ظل و اقفًا في هيئته العسكرية ينتظر إذنًا بالجلوس، ومباشرة بعدما جلس، قال بكري: لدينا كل ما تريد، قمح، بارود، أسلحة، أقمشة، نبيذ، خمر وحيوانات، وأسعارنا لا تقاوم في الأسواق في كل المتوسط، وما إن هم بوتان بالحديث، حتى قاطعه بكري: لكن بما أنك جئت عندنا فأكيد لديك فكرة عن أعمالنا فشركتنا معروفة جدًا.

قال بوتان: لديَّ كنز أريد أن أبيعك إياه، فأنا تاجر في الخرداوات والآثار، لكن الكنز موجود عندكم في الجزائر.

تجمدت الدماء في عروق بكري وهو يتحدث لهذا الشخص الذي جاء يتحدث عن كَنز يبحث عنه اليهود منذ قرون، فقال

له: ربما أخطأتَ العنوان فنحن لا نُتاجر في الكنوز، وعلاقتنا مع داي الجزائر تزداد تعقيدًا بسبب الديون.

أنا أحدثك عن كنز الداي، عن غنائم البحر والهِبَات والهدايا وأملاك الأثرياء الجزائريين الذين لم يخلفوا لها ورثة ومجوهرات والماس واللؤلؤ والذهب والفضة، وحُلي ومصوغات وقِطع نقدية والملابس الثمينة المطرزة بالذهب والمرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة والأسلحة الرفيعة الصنع، و أنت تعرف أن سعرها يفوق سعر قصر فرساي وقيمة الكَنز تفوق الثمانمائة مليون فرنك ذهبي.

عندما أنهى بوتان كلامه ظل بكري مشدوهًا كأنه ضرب من طرف الجن حتى وخزه بوتان في يده، قال: الأمر جلل يا سيدي اعذرني لقد نسيت اسمك من كثرة حديثك الشيق عن الكَنز، كل هذا في مدينة الجزائر، هل تعلم أننا كلفنا جواسيس من جزائريين وأوروبيين من أجل معرفة بعض هذه التفاصيل ودفعنا لأجل ذلك أموالًا ضخمة و أنت اليوم تقدمها لنا وبالمجان من فضلك ذكرني باسمك، يقول بكري.

أنا ايف بوتان صاحب مهمة في قصر فرساي وقد أرسلني نابليون بونابارت بجلالة قدره ورفعة سلطانه إلى جنابكم الموقر من أجل إعطائنا معلومات عن مدينة الجزائر مقابل إفادتكم بأخرى عن الكَنز لأننا نعلم أنكم تبحثون عنه، ودينكم هو الفرنك والأوقيات والمجوهرات، هذا لا شك فيه.

فقال بكري: يبدو أنك أتيتَ في الوقت المناسب، فقد ساعدنا هذا الصيف محافظ للعلاقات التجارية في سافون الذي كان تحت الأَسر طيلة سنوات في سجون الداي البغيض وقدَّم لنابليون تقريراً مفصلًا عن فترة وجوده هناك، أتمنى أن تطَّلع عليه، أنا شخصيا اطلعت على نسخة منه، قبل أن يقاطعه بوتان: هذا تقرير مليء بالخرافات وليس دقيقًا بالشكل الكافي، فقد اطلعت عليه أمس في ليلة بيضاء وخرجت بنتيجة أن المحافظ أفرغ غليله في ذلك التقريروكفى، المهم أريد أن تساعدني عبر شبكة جواسيسكم للدخول إلى الجزائرومن ثَمَّ تأمين رحلتي للعودة، إذ أخاف من أن يتعرف عليَّ الإنجليز فأهرب من السجان فأسقط في بابه في لندن، فقال بكري: قضية الجواسيس اعتبرهم في خدمتك. أما الأموال فتعرف أن الأوقيات عزيزة في جيوبنا وينبغي أن تتدبر الأمر مع من كَلَّفُوكَ بالمهمة وأعرف أن انتصاراتكم هي انتصاراتنا، فهدفنا واحد هو تركيع الداي والجزائر معًا.

كان على بوتان لقاء ديكري وزير البحرية والمستعمرات في حكومة نابليون بونابرت لوضع اللمسات الأخيرة لرحلته نحو مدينة الجزائر، لقد قرر أن يدخلها على أنه عالِم آثار من اليونان، ويُجرِي دراسةً علميةً حول الآثار في مختلف المدن الجزائرية حتى يتم تسهيل مهمته ويلتقي بأعوان بكري والأهالي.

عندما حطت السفينة بمدينة الجزائر، انبهر بنظافة

المدينة فكانت المزهريات تُزين البيوت البيضاء ونو افد زرقاء اللون تنسجم مع بحر وسماء الجزائر الذي لا يختلف عن مرسيليا وكان سكانها مضيافين وكُرماء، كان يمر بين الأزقة، لم يزعجه أحد لا بنظرة أو بكلمة.

تعلم بيتان اللغة العربية وكان يجد صعوبة بعض الشيء في فهم اللهجة الدزيرية التي تجمع بعض الكلمات التركية والعربية الفُصحى وكذا الأمازيغية.. كان ينتقل بين أزقة الصياغين وساحة السمن وساحة اللوح وسوق الجمعة وهو يتذكر أيام الثورة الفرنسية وكيف قُتِل والديه من طرف بعض دعاة الملكية، وهو غائب في باريس للدراسة، كانت أجواء البهجة في مدينة الجزائر تزيد من تعاسته وتُوقِظ فيه كوابيس مزعجة، فقد عادَ قبل الدخول للجزائر من إيطاليا وفقد في تلك الفترة بعد والديه، أَخَوَيه، إذ قُتِل شقيقه في أمريكا وأخوهُ الخَبَاز قُتِل في مدينته من قِبَل بعض اللصوص، فهل سيموت هنا عند باب الداي أحمد؟ كانت آلة الموت مشتعلةً في القصر وحواليه، لكن التاريخ لم يُسجِل أنها اقتربت من أجنبي أو عالم آثار جاء ليكون جاسوسًا لحاكِم فرنسا.

بوتان الفرنسي بعيونه الزرقاء وشعره الأصفر جالس القرفصاء وقد تخلص من هيئته العسكرية واستسلم لروح الجزائر العتيقة يستمتع بعبق الياسمين والحبق، وهو مستلقٍ في مقهى بحومة السردين، قدَّم له القهواجي في صينية نحاسية

خالصة مختلف الحلويات الجزائرية البقلاوة والفلاودج التركية والقنديلات والدزيريات، كلها بنكهة اللوز وماء الزهر، مع كوب من الشاي وُضِعَت فيه زهرات من الياسمين، وقهوة تُركية حباتها محمصة على الجمر، كانت تناديه من أول الزُقاق، كانت من القوة ما جعلته يجلس جلسة عربية خالصة مع أشخاص جاء ليتجسس عليهم، وترسَل جثثهم إلى فرنسا فيعودوا رمادًا تشعل بها أفران باريس في فصل شتاء سنة ألف وثمانمئة وثلاثون.

وقف جنود من الانكشارية على الباب ومعهم القنصل الفرنسي كأنه مُتهَم، قام بإشارة برأسه إلى ايف بالمجيء، اصطحبه إلى القنصلية ليقول له هل بدأت بجمع المعلومات التي ترغب فيها، قال بوتان: الشيء الوحيد الذي اكتشفته أن كل التقارير التي قرأتها عن مدينة الجزائر غالطة أو مغلوطة، فسِحر هذه المدينة يفوق كل التصورات. كما أن الشعب في واد والدايات في وادٍ آخر، فرد عليه القنصل: إن الشيطان نفسه لا يدري ماذا يحدث في هذه البلاد، قال بوتان: إن الشيء المؤسف فيها هو كثرة القتل.

في اليوم الموالي انتقل بوتان إلى كاب ماتيفو، شرق مدينة الجزائر، وجد فيها حصنًا صغيرًا يُستعمل لمراقبة السواحل ولتخزين الأسلحة، اقترب بعض الشيء من الشاطئ فإذا بسيف يسلط على رقبته، قال الجندي: إذا لامست الموجة قدميك

فإنك في عداد الموتى وستعود إلى اليونان في نعش مُسجي.

كان ذلك أول إنذار يتلقاه ايف بوتان من الجنود المرافقين له، حاول في اليوم الموالي التخلص من مرافقيه، انتقل إلى برج الكيفان وجد فيها أراض فلاحية شاسعة وكان سكانها بُسطاء. أما عن المؤسسات العسكرية فوجد بها حِصنَان، الأول عند مدخل المدينة والثاني في مخرجها، لكن المُشكلة التي وَجَدَهَا أنَّ السفن الحربية لا يمكنها أن ترسو فيها.

في سيدي فرج وجد بوتان ضالته.. السفن يمكن أن ترسو بكل سهولة والتحصينات هناك هشة، انتقل مسرعًا إلى القنصل، حيث بدأ في إعداد تقريره بعدما كلف بن زحواط بنشر جواسيسه في مختلف أركان البلاد من مشرقها إلى مغربها وفي جنوبها.

كتب أن في كل العناصر التي يتم تناولها لإعداد مشروع غزو الجزائر، هناك عنصران أساسيان وهما مكان الإنزال والمقاومة التي يتحتم التغلب عليها بعد ذلك، العنصر الأول يتمثل في الدراسة المفصلة لطبيعة الأرض، والثاني سيتضح بوصف الحصون وتقرير قوات الداي.. سنشرع إذن في الكلام أولا عن الأرض ثم عن الحصون والبطاريات، ثم تناول بعد ذلك مختلف المسائل، وبعد أن استعرض الأماكن القابلة للإنزال في شرق مدينة الجزائر وتبيين معايبها، أردف مؤكِدًا، لم تبق

إذن سوى الرقعة الو اقعة بين رأس فاكسين وسيدي فرج وما تحتها، فهنا بالفعل المكان اللائق لذلك، فالشاطىء في هذه الرقعة رملي وفي كل هذا الجزء لا توجد لا بطارية ولا حِصن، ما عدا البُرج الوحيد عند سيدي فرج، والذي لا يستحق أن يوضع في الاعتبار. فهو مربع الشكل وذو ارتفاع ما بين ١٥ و٢٠ مترا على أكثر تقدير، وعرض جنباته ما بين ثلاثة إلى خمسة أمتار وبه مدفع واحد صغير في حالةٍ سيئةٍ، فهو برج قديم لن يستطيع الصمود أمام قصف مدفعي حتى ولو كان خفيفًا.

وسائل الهجوم العامة الأخرى تتمثل في إرسال مفرزة من القوات إلى مدينة وهران، والعمل على أن يكون باي قسنطينة في حالة حرب مع باي تونس، وقيام بَحَريتنا أثناء عملية الإنزال عند سيدي برج، في حالة توفر سفن كافية، باستعراضات متحرشة أمام مرسى وميناء مدينة الجزائر لأجل تثبيت الجزائريين عند بطارياتهم وهو شيء يعجبهم كثيرًا، فقوات الداي تتكون من المشاة الأتراك.. بمعنى أولئك الذين قَدِمُوا مباشرة من الشرق وكذلك من الكلوغية أبناء الجنود الأتراك الذين رخص لهم بالزواج في الجزائر، ومن عدد قليل من الزواوة، وجميعهم يمكن أن يصل عددهم إلى خمسة عشرة ألفًا، أي عشرة آلاف تركي وخمسة آلاف كلوغلي.. ومن هذا العدد تتشكل حاميات مختلف المدن في البلاد، ولن يبقى في مدينة الجزائر أكثر من عشرة آلاف جندي ففي الحملة ضد تونس تم تعبئة ثمانية آلاف جندي ولم يبق سوى عدد قليل

من القوات في مدينة الجزائروكل الناس لاحظت ذلك.

وأضاف في تقريره عن الحملة الإسبانية ضد الجزائر خلال عام ١٧٧٥ وفشلها «الجزائريون قاموا في ذلك الوقت، حسب قولهم، بتعبئة ٨٠ ألف جندي، لكن الميل إلى المبالغة الذي يتصف به هؤلاء الناس يسمح بتخفيض هذا العدد دون الخوف من الغلط إلى ٦٠ ألف، وهو أقصى ما يمكن أن يجمعه الداي من القوات في حالة كون الظروف جد مواتية بالنسبة له.. بصفة عامة فإنها (الجزائر) لا تُصَدِّر أي شيء من المنتوجات المصنوعة، ماعدا بعض السلع الترفيهية، كالمحافظ وماء الورد والمناديل الحريرية التي يستعملها نساء البلاد كمحازم يتمطقن بها. وتصنع الزرابي في القالة، كما تُصنَع في مدينة الجزائر محازم ومناديل وكذلك كمية قليلة من الملاءات الخشنة، وتُصنَع في الجبال، الأغطية والمعاطف (البرانس)، وتُصَدِّر على الخصوص القمح، الشعير، الحنطة، القمح الصلب، الدرة، والرز، وهو من النوع الرديء، الشمع والعسل وزيت الزيتون والبرتقال والليمون والكرموس وقليل من التَمر. كما تُصَدِّر العنب والجلود والصوف واللوز، ومن الحيوانات الأبقار والأغنام والخيول وغيرها، وفي السنوات الجيدة تصل مشتريات الشركة الإفريقية في ميناء بونة وحده إلى ثمانمائة ألف كيلة وستة عشر ألف قنطار من الصوف، الواردات تستقبل بعض السلع من أزمير ودمشق ومن مصر وتستقبل من أوروبا وخاصةً من فرنسا، الأقمشة والكتان الهندي الرفيع والأواني المعدنية

المنزلية والحديد والصلب والألمنيوم والرصاص والقصدير، وكذلك أدوات الحِرَف الرئيسية والأقمشة الحريرية والمناديل الحريرية. أما التجهيزات البحرية والذخائر الحربية فتأتيها على الخصوص من البلدان الشمالية».

عند الانتهاء من كتابة التقرير، جاءه بن زحواط إلى مكتبه، فقال بوتان: أهلًا وسهلًا، عليَّ أن أشكرك على كل الخدمات التي قدمتها لي ولفرنسا، فقال بن زحواط: هذه ليست المرة الأولى أو الأخيرة التي نُقدِّم فيها خدماتنا إلى باريس، وأنت خير العارفين أن خدماتنا ليست مجانية، وقد اتفقنا في مكتبنا أنك ستجمع معلومات عن الكَنز والجزائر في الوقت نفسه، فقال بوتان: أعرف أنكم لن تقدموا لنا شيئًا لعيوننا الزرقاء ونحن ندفع لكم مقابل خدماتكم من دمائنا ومن أموالنا، المهم قال بن زحواط أين وصلت في مهمتك؟، فقال: لقد انتهيتُ لتوي من أعداد التقرير وسأكون بعد غد في قصر فرساي لأقدمه إلى نابليون الذي سأذكركم عنده، وكيف أني تلقيت كل التسهيلات منكم ومن بوشناق وبكري وكل يهود الجزائر، فقال بن زحواط: هذا لطف منك، لكني أريد المعلومات التي تحصلت عليها حول الكَنز، فقال بوتان: إنني تحصلت على معلومات سطحية وليست دقيقة، فالمعلومات التي عندي تقول إن هناك ممرًا سريًا من المرفأ بقاع السور إلى غاية دار السلطان العاليا، ولم نتحقق من وجود الممر السري ولا عن حجم الكَنز الذي تشتاقون إلى ضمه إلى ثرواتكم، فقال بن زحواط: ومن يدريك

فقد يكون ذات يوم بين أيديكم وتنقذون أنفسكم من التهلكة، فقال بوتان: أنت تعرف منطق الأشياء وسيرورة التاريخ من يجد الكَنز، يجد مفتاح الجزائر والعالَم كله.

قال بن زحواط: أنسيتني شيئًا مهمًا، لقد افتضح أمرك هنا في المدينة وعليك المغادرة اليوم.. اليومَ قبل الغد، فقد أرسل الداي فرقة من الجنود من أجل اعتقالك وعليك المغادرة، فإذا تم القبض عليك هنا فإن ذلك مدعاة إلى أزمة ديبلوماسية بين الجزائر وفرنسا نحن في غنى عنها، خاصة و أننا في هدنة منذ ما يقرب عشر سنوات.

خرج بن زحواط غاضبًا من بوتان، فلم يُبدِ هذا الأخير تعاونًا في مسألة الكَنز وراح يتكلم بالألغاز وطَغَت عليه شخصيته العسكرية، لقد خَسِرنا من أجل تأمين حياته العشرات من الأعوان في تامنفوست وسيدي فرج، بينما كان يتنقل من شرق الجزائر وغربها ولولا تدخلنا - يقول بن زحواط - بالمال والسلاح لكان في عداد الموتى.

عند وصول بن زحواط إلى المعبد اليهودي بباب الواد، كانت ملامح الغضب باديةً عليه فقد دعا إلى اجتماع بين بكري وبوشناق في قصر السلطان مع الداي أحمد لمناقشة مسألة الديون، والوضع العام في البلاد فلا شيئ كان يسُر فيها، الموت في كل مكان والانكشاريون بدأوا في الاستيلاء على بعض الأوقاف الإسلامية وزادت ثروتهم.

لحقت لعنة بن زحواط بوتان الفرنسي في عرض البحر، فقد اعترض باخرة القرش التي كانت تقله، سُفُن تحمل الأعلام الانجليزية ، وقبل أن يُقتاد إلى سجن بجيرة مالطة، مزق كل تقريره ورسوماته ومكث هناك دون أن تصل أخباره إلى نابليون المتحمس لرؤية تقريره، كان يبيت داعيًا «الرب» أن يُخلصه من أَسرِه، فحدث تمرد في المدينة استطاع الأسرى حينها الخروج، ثم هرب إلى إسطنبول وعاد إلى فرنسا عبر قو افل تجارية إلى باريس، حيث قابل الرجل القصير نابليون، بعد رحلة طويلة فقدَ فيها كثيرًا من وزنه وتغيرت ملامحه نتيجة الحَر والحاجة التي عاش فيها طيلة أكثر من أربعة أشهر.

أول شيئ فعله بوتان أن حَضَر قُدَّاس بكنيسة السيدة بباريس، ظنَّ يسأل الرب أن يُوَفِق فرنسا لاحتلال الجز ائر و إنقاذ الشعب الفرنسي من الحرب الأهلية وأن يُقَوي نابليون على أعدائه الإنجليزوالإسبان وأن يلهمه السَدَاد لنشر الحضارة وقِيَم الثورة في عالم البر ابرة.

كان لبوتان لقاءًا خاطفًا وهو عائد من إسطنبول بالبابا في الفاتيكان، كان موضوع اللقاء مباركة الحرب المقدسة التي سيخوضها في العقد القادم نابليون بونابرت والفرنسيون عمومًا، بالتعاون مع اليهود أبناء العمومة ضد الجز ائر من أجل نشر رسالة المسيح والانقضاض على كَنز الداي فـ ٥٠٠ مليون فرنك قديم كفيلة ببناء جسر بين مارسيليا والجز ائر هكذا كان يقول بوتان للبابا، لقد ذَكَّر البابا ضيفه برسالة أرسلها الرجل القصير إلى اليهود في إحدى الاحتفالات الدينية جاء فيها: «من

نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة الفرنسية في إفريقيا وأسيا إلى وَرَثة فلسطين الشرعيين، إن هي إلا اللحظة المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السنين، للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين الشعوب، تلك الحقوق التي سُلبت منكم وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم وحقكم الطبيعي في عبادة يهوة، طبقا لعقيدتكم علنا وإلى الأبد».

لقد فهم بوتانان الباب مغتاظ من الدعم الذي يقدمه بونابرت لليهود على حساب الدعم للعالم المسيحي، فقال بوتان: إن وطنا لليهود في فلسطين يعني أن اليهود سيغادرون أوروبا، وسيكون لنا إنجاز خريطة للعالم الجديد، وأضاف بوتان: لا تنسى يا قداسة البابا أن بكري وبوشناق مَوَّلا سُفُنًا ضخمة من القمح والمعدات والخمورالذخيرة من أجل تمويل الحملة الفرنسية على مِصر انطلاقا من ميناء الجزائر، لقد ساعدونا بمقابل منحهم وطنًا قوميًا لليهود في فلسطين ويجب عليكم مباركة جهودنا، فقال له البابا: ليبارك الله خطاكم ولكم كل دعواتي وفقكم الرب.

وبعد شرب الماء المقدس عاد بوتان إلى باريس فوجد فرنسا قد تغيرت والأولويات لم تعُد بالتوجه نحو الجزائر وإنما بالاتجاه إلى أوروبا والتحالُف مع الرُوس. فوضع تقريره في مكتب نابليون، دون أن يعيش لحظات تنفيذ التقرير.

لالة يا لالة يامولاة القلب القاسي حني على حبيبك، يااللي طيرتي مني نعاسي ملي شفتك راني نتعذب، عليك نعادي امااليا وكل أحبابي وناسي.

الكنز المثقوب

تقول كثير من الروايات التاريخية أن كنوز القصبة كانت مُودَعة في خزنة الباشا بقصر الجنينة بساحة الشهداء الحالية إلى غاية ١٨١٧م، حيث نقلها الداي علي خوجة سراً إلى «القلعة» التي أصبحت مقر الحُكْم الجديد الذي اشتهر بـ«دارْ السُّلطانْ»، الواقعة بحي الباب الجديد. وقام بنقلها من القصبة السفلى إلى أعاليها، أي من «الوْطَا»، حسب المصطلحات المتداولة آنذاك، إلى «الجْبَلْ»، ودامت العملية أكثر من ٣٦ يوما، حسب الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف مدينة الجزائر، الذي عايش أحداث تلك الفترة. نُقَلت هذه الكنوز على ظهور البغال الحمير ليلًا بعد إقرار الباشا حظر التجول من غروب الشمس حتى شروقها. أما محتوياتها التي لم يكن مسموحًا بالدخول إلى خَزْنَتِها إلا للداي نفسه ومساعده الخزناجي، فتراوحت بين المجوهرات والألماس واللؤلؤ والذهب والفضة سواء في شكل تبر أو قطع نقدية أو حُلَي ومصوغات فاخرة ونادرة، بالإضافة إلى الملابس الثمينة المُطرزة بالذهب والمرصعة بالجواهر والأسلحة الرفيعة الصنع التي كان سعر بعضها يفوق سعر قصور كاملة. وقد أجمع الباحثون على أن قيمة كنوز القصبة التي سرقها الجنرال دوبورمونت في ٥ جويلية ١٨٣٠م وحَوَّل جزء منها إلى ملك فرنسا تُقدَّر بـ: ٢٠٠ إلى ٨٠٠ مليون فرنكًا ذهبيًا بِقِيَمِ ذلك

الزمان، حيث كان الفرنك الواحد يُشكل ثروة في حد ذاته. هذا هو العجب الأول الذي لم يكن عجبًا و إنما حقيقة مُقَيَّدَة في الدفاتر والوثائق والسّجلات.

قبل لقائي بابن زحواط، استدعاني ريمون في لقاء في سوق الجمعة من أجل تأكيد بعض المعلومات التي بحوزتي، قُلتُ له: إن هناك حراسة مشبوهة على أحد الأبواب الصغيرة المقابلة لقاعة الاجتماعات بالقصر، ولما سألت صديقي كوجق عنها قال إن ذلك الباب يؤدي إلى ممر سري من باب السلطان إلى المرسى مباشرة، إذ يستطيع الداي الهروب في حالة اضطرابات أو خَشيَة من القتل، حيت ينتقل من قصره إلى السفينة.

سألني ريمون: ما علاقة الممر بالكَنز، قلت: إنه يمكننا التأكد من ذلك إذا أرسلتم رجالكم لِتَفَقُّد النفق، للوصول إلى قاعة الديوان ومن ثم إلى الخزنة، حذرتُ ريمون من الحراسة المشددة التي فرضها الداي أحمد حول القصر عمومًا وعلى بيت الخزنة، فقليل من الرجال مَن دَخَلَها.

بعد أسابيع علمت أن الجُند وجدوا رؤوسا بشرية مفصولة عن أجسادها في وسط الممر الذي ينظف دوريًا، سألت صديقي كوجق عنها فقال: إنه الليلة الماضية اشتبك جنود مع أربعة رجال كانوا يلبسون لباسًا أسود وملثمين يحملون معهم سيوفًا برأسين، و انتهت المناوشة بأن ألقيت جثثهم في البحر ورؤوسهم

عُلِقَت في السور حتى يكونوا عبرة لغيرهم وحتى لا يعرف شيئ عن الممر، ولا يكثر الحديث عنه لدى العامة وإذا سمعت كلامًا هنا وهناك فسأقتلك أيها الغسال المتوحش، قالها وانفجر ضاحكًا، لقد صدمني بهذا القول فأنا أعرف الأتراك لا يعرفون الدعابة في الحديث عن القتل.

سيكون عليَّ من اليوم أن أكون أكثر حزمًا في كل شيء، قلتها وأنا أتحسس كرسي الداي الوافر والعريض، حيث كان يقف اثنان من الخدم، واحد عن اليمين وآخر عن الشمال، يلطفون الجو بمروحة مصنوعة من ريش الطاووس.

أعرف أنهم وضعوني هنا لكي أكون ألعوبة بين أيديهم، فبن زحواط وبكري وبوشناق يظنون أني لقمة سائغة وسهلة. أما الانكشاريون فمجرد عروسة قراقوز يجرونها بخيوط من أعلى ومَطِيَّة لتحقيق أغراضهم ومصالحهم، لكن سأكون لهؤلاء وأولئك حجرة عثرة في طريقهم.

لقد أمرت الخدم بشراء أرقى أنواع البخور والجاوي والفاسوخ لطرد عين الحساد، وطرد كل الجنون الذي ظلوا لأوقات طويلة يتربصون بسكان القصر.

كنتُ أُفكر في الباشا حمودة حاكم تونس، فلو أنه أرسل شحنة الزيت إلى الداي وأعلن الولاء والطاعة كما كان يفعل

دائمًا ومنذ سنوات، لكنه هذه المرة رَكِبَ رأسهُ ورفض، لَمَا كُنتُ دايًا على الجزائر، ولَمَا قُتِلَ أحمد باشا، فقد أحجم باي حمودة باشا تونس عن إرسال شحنة زيت كان متعودًا على إرسالها إلى الجزائر، فاغتاظ الداي أحمد غيظًا شديدًا لذلك السلوك الذي كان نوعًا من القطيعة وخروجًا عن الطاعة. فالزيت التونسي لم يكن يعني شيئًا للداي أو ديوانه، فالزيت في مدينة الجزائر أشهى، إذ كان يُجلب من بجاية وبسكرة وتنس وغيرها من المدن التابعة للبايلك، كما أن كثيرًا من الفلاحين كانوا يُرسلون الزيت وغيره من المواد للداي أحمد مقابل أن يُعين أبناءهم في القصور والمناصب بكميات أكبر من الكمية التي كان الباشا يرسلها، لكن فُروض الطاعة والولاء كانت تَفرض أن تزيد الهدية السنوية ولا تنقص حبة قمح واحدة، وتزامن مع هذه القطيعة أن باي قسنطينة كان شابًا دون تجربة وأن الأتراك لم يكونوا متفقين فيما بينهم.

ولذلك أراد حمدوة باشا أن يغتنم الفرصة، فأرسل جيشًا هامًا إلى قسنطينة حاصرها مدة سبعة عشر يومًا وهو يرجم المدينة بالمدفعية والقنابل، لكن سكانها أبدوا مقاومة مستميتة إلى أن جاءتهم النجدة من مدينة الجزائر، لأنهم كانوا يعرفون حقَ المعرفة كيف كان تصرُفَهُم السابق مع تونس ومتأكدين من أن هؤلاء الأخيرين لن يعاملوهم بالحُسنى لو انتصروا عليهم.

أذكر أن صديقي كوجق جاءني في تلك الليلة، وقال لي

إنه سيغادر مع الجيش لتأديب الباشا ولِفَكِ الحصار عن قسنطينة، وطلب مني أن أكون يقظًا وأن أراقب الداي في غيابه إلى حين عودته.

كان أحمد باشا عبدًا لِهَوَاهُ وقاسيًا فأمر بخنق الأغا الذي عادَ منتصرًا واستولى على ثرواته بكل برودة أعصاب، وعَيَّن ابن أخيه ليخلُف من أقدم على التضحية به ثم جهز جيشًا آخر ضد تونس وأرسل مبلغًا هامًا من المال إلى قسنطينة لسد حاجيات الحرب، كان قد اقترضها من بوجناح اليهودي حتى يُحافظ هذا الأخير على الامتيازات التي تحصل عليها، لأن كل طرق التجارة كانت بين يديه، فهو الآن «رب الدزاير». عند ذلك قام الأتراك المكونون لحامية قسنطينة بثورة وقتلوا باي تلك المقاطعة وكذلك الأغا الجديد، وهو ابن أخ الباشا ولما رجعوا إلى الجزائر أشعلوا ثورة شعواء، تم تخريب المدينة و أبوابها.

الخوف حل مرة ثانية بالمحروسة الجزائر، لكن هذه المرة لم يكن السكان متحمسون لمشاكل الداي والأتراك الانكشاريون، فبمجرد سماع خبر تعيين الباشا أحمد ابن أخيه على رأس الجيش و إبعاد كوجق صديقي وقتل الأغا الذي انتصر في فك حصار قسنطينة، أُغلِقَت المحلات وأُجِلَت الأسواق إلى وقت غير معلوم. كما أُجِلَت عملية تسليم الدنوش من قبل الداي إلى غاية سماع خبر مقتل ابن أخ الداي وثورة الأتراك في قسنطينة، كان يومًا طويلًا، خاصة أنه تزامن مع عاصفة خَرَّبت العديد

من السفن في الميناء وهدمت السيول بعض البيوت المهترئة وبدت المدينة كأن اللعنة حلت عليها.

كوجق ومجموعة من الانكشاريين التقوا بأفندينا يستشيرونه في أمر الأيالة بعد حادثة مقتل ابن أخ الداي، والخراب الذي حل بالمدينة بعد قُدوم مجموعة من الجنود من قسنطينة، الداي أحمد ظَلَّ معزولًا في قصره لا يُكلم أو يكلمه أحد، مصيره ظَلَّ معلقًا بقرارات الاجتماع، ظل كوجق يُصرح لابد من إيقاف هده المهزلة، فالنهب وصل مداه، اقترح أفندينا أن يتم انتخاب داي من هذا المجلس أو الاقتداء بما حدث في السيرة النبوية في حِلف الفضول، وهي ان ينتخبوا أول داخل عليهم في المجلس، قال أحدهم إن هذا الأمر مستحيل وتصغير لعقولنا ولعب بمصير البلاد، يعني حتى إذا دخل غسال الموتى على المجلس نعينه، هذا هُراء، قالها أحد الأتراك وقبل أن يُنهي كلامه، كنتُ و اقفًا عند الباب فكان لي موعد مع كوجق في أمر قال لي إنه مهم وفي مصلحة المدينة، فدعاني للجلوس في المجلس، وقال: إن وضع البلاد كما تَسمع وتَرى لا يَسُر العدو ولا الصديق، الانتفاضات من كل جانب وخزائن الأيالة فارغة، والبحرية في تَراجُع، وقد اجتمع الروس والفرنسيس من أجل التصدي لنشاطنا في المتوسط، فقلتُ: أنا مُجرد غسال للموتى في القصر وأنتم انكشاريون وأتراك وعسكريون وقادرون على تسيير عشر دول، فلماذا أنا، ولماذا لا يكون أفندينا أو كوجق، فقالوا نريد دايًا يعرفه أهل المدينة، ويعرفه أفندينا

ويحظى بالقبول لدى الجنود وغسل الموتى ليس عيبًا أو قذفًا في شخصك، فهي تقربك من الله الواحد القهار، فقلت: ليس لي في السياسة ولا في تسيير الدولة، فقال كوجق: سيكون لك مستشارون ونحن معك في السَّرَاءِ والضَّرَاء و أفندينا معك يدعو لك في المساجد والمدائن ويشد أزرك، فقلت: ماذا عن الداي أحمد، فقال كوجق: ذاك أمره مفصول وستكون نهايته على يديك.

لقد أمر كوجق بمحاصرة الداي أحمد من قِبَل عصابته التي كونها سابقًا، كانوا غلاظًا شدادًا لا يعصون ما أمرهم، لقد طَرَدُوا كل الخَدَم في قصر السلطان ولم يلقوا أي اعتراض منهم، كان يَهم بالوضوء لصلاة الفجر، عندما تفرق دمه في البيت بين خمسة سيوف انهالت عليه فأردته قتيلًا وتركته مخضبًا في دمائه.

قبل يومين من التعيين، وقبل أن ألتقي صديقي كوجق المعزول من منصبه، ويعرض عليَّ أن أكون دايًا على المحروسة، أحسست بضيق في نفسي فاستلقيت عند الشجرة التي كان يتحدث إليها سيدي منصور، مر البراح لتوه أمامي فقد أعلن عن إغلاق الأبواب الستة للمدينة، وكان ينتظره قائد الباب وهو يهرول لإيصال المفاتيح إلى الداي وهو لا يدري أن هذا الأخير تم قتله شر قتلة.

كان سكان القصبة كثيرًا ما يرددون عبارة «ما يبقى فوق السور غير سيدي منصور»، عند المرور على شجرة الدلب التي كانت تظلل دكانه الصغير الذي دفن فيه،و أنا أفكر في كيف قتل الداي أحمد، حتى سمعت صوتًا كأنه قادم من بعيد، بعد هنيهة بدأ الصوت يتضح فسمعت «يا قاتل الروح وين تروح»، سمعتها لكني لم أتعرف على قائلها، هممت بالوقوف بمجرد سماعي يا قاتل، تحسست الشجرة وتأكدت أن مصدر الصوت منها، لقد ظننت أن أحدهم رآني عندما كنت مع قتلة الداي وهو يحاول تهديدي بالحديث من أعلى الشجرة، لكني تأكدت أن شجرة سيدي منصور وبقدرة قادر أضحت تكلمني، قالت: «من جاور الأجواد جاد بجودهم، ومن جاور الأرذال خاب أظناه، ومن جاور قدرة انطلى بحمومها ومن جاور صابون جاب نقاه، حديثي موزون والفاهم يفهم، اليوم دنيا وغدوة كديا، الوقت انقلب والحمار صار يحلب، نوصيك يابن آدم إبليس قال أنا ما يغلبني غير اللي يشاور، كن كي الإبرة تكسي غيرها وهي عريانة».

وجدتُ صعوبة في الحديث مع شجرة، كان ذلك يبدو غريبًا جدًا. بل ضربًا من الجنون، غسال الموتى اليوم وغدًا داي الجزائر يكلم شجرة الدلب التي كلمت سيدي منصور بعد قرون، فهمت من الكلام الذي سمعته أن الشجرة أو من يتكلم يعرف جيدًا مُجريات الأمور، لقد اكتفيت بالاستماع فقط وقد عادت إليَّ صورة تلك الجنية السوداء المشؤومة، فسمعت «الخز يطلع فوق خوه حتى يجي مولاها»، أنت الخز وليس

مولاها وسيكون مصيرك مثل سابقيك مصطفى وأحمد، فهذا الكرسي الذي ستجلس عليه غدًا سيكون المقصلة التي تَقطَع رأسك وخليفتك الذي سيُقتَل في الحمام واسمه من اسمك، وسيأتي على البلاد غمام أسود يمتد لقرن أو أكثر، وقطرة الغمامة انطلقت من هنا من المحروسة، وسيكون رجالًا تضيء بهم الطريق وآخرون يبيعون البلاد والعباد في سوق النخاسة، هذا الكرسي سيعرف بعد انقشاع الغمام رجل سيكون آخر الرجال فيُقتَل مسمومًا من بلد يكون فيها ثلج وبرد، ثم يكثر القتل حتى يصيب رأس الدولة وسيكون اسمه أحمد، فتُغلَق أبواب المدينة الستة، ثم يَكثُر الفساد بعد امتلاء الخزائن، فتأتي الأمم لقصعة الجزائر، كما تداعى الأكلة لقصعتها، ثم لم أعُد أسمع كلام الشجرة وقد غابت الشمس، وتذكرتُ أن آخر واحد تكلمت معه قُطِعَ رأسه وعُلِّقَ في السور سيدي منصور، وظللتُ سارحًا في ذلك الكلام الذي سمعته وحاولتُ أن أُفكِك ألغازه، وحِكمَتِه، فزدت إصرارًا على الحزم والقوة خلال شَغلي لهذا الكرسي «المحان»، كان عليَّ الاعتراف على الأقل مع نفسي أن لا علاقة لي لا بالسياسة ولا بكرسي الحكم، فلولا سيف وسلطان خوجة الخيل، ومال الخزناجي لما قَبلت أن أكون على رأس بلاد سلاك الحاصلين.

أنا مجهول النسب، الوضيع الذي ولد في الحَمَّام، غَسَّال الموتى، السارق، المارق، سأجلس غدًا في كرسي الداي وبعده سأُرسِل هدية لأجلِب فرمان التعيين من قِبَل سلطان الدنيا

والدين الخليفة السلطان عبد الحميد، وسيكون بيدي مفتاح خزنة الداي، الخزنة التي أقضت مضاجع الملوك والسلاطين والحُكَّام والأُمراء في أوروبا وفي كل أصقاع العالم ستكون بين يدي، و أنا الذي جئت من نزوة عابرة لبحار ترك زوجته تلد في حمام قدر، عَمِلتُ حمالًا، وجاسوسًا، وتكبدت السجن، فالكدية وسجن السلطان لأصبح أنا السلطان.

ألم يجدوا أحسن مني في هذه البلاد التي أنجبت العُظماء؟ زيري بن مناد، ورياس البحر الرايس حميدو، علج علي، وفيها كان عقبة بن نافع، الأخوان عروج وخير الدين، بلاد وصل أسطولها إلى الدنمارك، وخطت معاهدة الصلح مع أمريكا باللغة العربية، وأراضيها تعيّش أوروبا بكاملها.

في يوم التعيين، أفسدَت الأمطار الغزيرة الحفل فكثير من المدعوين، لم يتمكنوا من الحضور بسبب العاصفة، كنا في غرة نوفمبر، قررنا اختصار العملية في حضور أفندينا، فسلمني عمامة الداي باش السلام وقد توَزَع أعضاء الديوان على القاعة ينتظرون أن ألبسها حتى يأتوا لتقبيل يدي واحدًا تلو الآخر، كان منظرًا مثيرًا للعظمة والشفقة ويبعث فيَّ روحًا جديدة لم أستطعمها قبل، روح تجعلك تنظر إلى الرعية على أنهم «جرذان» يستوجب سحقهم، وإلهائهم سهل، عليَّ إكثار الزردات والمهرجانات، و إبعاد كل من تُسول له نفسه الاقتراب من هذا الكرسي الذي لم يكن أبدًا في اهتماماتي، لكنه اليوم مِلكي ولن أتنازل عنه إلا بصعود الروح.

بعد شهر من تعييني، أمرت الخزناجي بعقد لقاء للديوان من أجل النظر في حالة التسيب التي تشهدها البلاد، فلا يزال حمودة باشا لم يرتدع بالحملة السابقة التي حركها مصطفى باشا وكانت سببًا في هلاك هذا الأخير، كما تعاظمت التمرُدات نتيجة استيلاء أعضاء من الديوان وأغلبهم من الأتراك على أوقاف العرب وبعض القبائل في بوزريعة وسطاوالي وبايلك التيطري والبليدة، علاوة على تراجع البحرية نتيجة التجنيد الجُزافي من مختلف الجنسيات والمِلل والنِحَل، وكان القنصلان الفرنسي والانجليزي يصبحان ويمسيان على بابي بعد منح امتيازات كانت في السابق لفرنسا وأعطاها مصطفى باشا للإنجليز، فالأول ظل يُذَكِرُنا بمعاهدة الصلح التي أمضاها مصطفى المغدور منذ عشر سنوات. أما الثاني فكان يُغدِق علينا بهدايا فاخرة منها ساعة رملية فائقة الجمال حتى نضبط ساعتنا على ساعته ونبقي الوضع على حاله.

قال الخزناجي: يا مولاي إن الكثير من الوزراء في الديوان يجدون صعوبة في تسيير شوؤن العامة في وزارتهم لأنهم ليسوا أهل حِرفة وتم اختيارهم على عجل، فهذا خوجة الخيل كان جزارًا في القصبة ولا يفقه شيئًا في أمور الجيش ولا تسيير القشلات أو الجند وما إلى ذلك، كما أن الكاهية كان حلاقًا في سوق الجمعة، وأكثر شيء يعده هو شعرات الشيب على رؤوس زبائنه ولم يعد الأموال بأكثر من عشر أوقيات في الشهر وإذا به يعد الألماس والفيروز والمجوهرات بخزنة الداي التي كثُر فيها

الطامعون من الداخل والخارج. أما رئيس الكتبة أو المقطجي فلا علاقة له بالقلم وما يسطرون، وأحسن شيء يُتقنه هو لعبة الشطرنج ولعبة «السيق» والكريدة و«الخربقة»... قلتُ: لا أحد منكم في مكانه ومن لديه اعتراض فعليه الخروج من صفوفنا... فطأطأ الجمع رؤوسهم، فمصير المعُترض كان معروفًا رأسه في سورسيدي منصورو انتهى الموضوع.

سمعتُ همسًا لأحدهم في أذن الأخر: «كلام الداي معقول جدًا فهو غسال للموتى قبل أن يكون على رؤوسنا والداي السابق كانَ كناسًا»، لكن المشكلة رغم هذا الوضع كانت الأمور عادية، قبل أن نسمع أذان الظُهر فرفعنا الجلسة دون أن يتفق الديوان على شيء ملموس.

بعد الظُهر استلقيت قليلًا، وكنتُ أفكر في عزل جميع الوزراء وخوفي الوحيد من أن يطيرَ رأسي، فوزراء في حكومتي لديهم دولة في دولة ويوجد الشيطان فقط يعرف ثروتهم و إبليس يغير طريقهُ بمجرد أن يشاهدهم في الاتجاه المعاكس.

سمعتُ طرقًا في الباب، ظننتُ أن الشيطان بنفسه جاء بعدما فكرت فيه، أخبرني الحاجب أن امرأة تنتظر عند مدخل غرفتي، امرأة قالها وهو يرمقها بنظره من الفوق إلى أخمص قدميها، فهذا الأخير هو الشيء الوحيد الذي كان يظهر منها. طلبتُ من الحاجب أن تنتظرني حتى أُجَهِز نفسي لاستقبالها،

جئتُ إليها متثاقلًا فقد كان النعاس يستبدُ بي، رَمقتُها بنظرة مسروقة، كانت ككومة قمح، فهي ترتدي نقابًا أسود ورأسها مطأطئ إلى الأسفل، قلتُ: السلام، قالت: سلام.. بصوت خافت ومن لكنتها عرفت أنها أجنبية وعربيتها ركيكة، انزعجتُ من الموقف فأنا متحمس لرؤية وجه محدثتي، هَمَسَت في أذني أن صديقك مات ولم تسأل عنه.

ظللتُ دقائق و أنا أفكر في الصديق الذي توفي ولم اسأل عنه، صحيح لم يكن لديَّ أصدقاء قبل أن أكون دايًا. أما الآن فأصدقائي كُثرومن كثرتهم ربما فإني نسيت بعضهم وأمور الرعية تمنعني من السؤال عنهم، قلتُ لها ذلك وبدأت تبكي بحرقة، حاولتُ الاقتراب منها فامتنعت بحركة بيدها فصدتني، فقلتُ لها: ما يبكيك؟، قالت: إني ابنة ريمون بن يوشع الصقلي، قلتُ لها: إن هذا الاسم لا يعني لي شيئًا، قالت: ريمون خادم بن زحواط، آه وهل توفي؟ أنا آسف، لم أكن أعلم ذلك، التقيته منذ ستة أشهر بسوق الجمعة، قالت: لقد توفي بعدما أصبح نحيلًا جدًا ونقله بن زحواط إلى صقلية للعلاج، لكنه توفي هناك، وقد دفناه في مقبرة اليهود الأسبوع الماضي في باب الواد، كنت سأقول لها رحمه الله، لكني تذكرتُ أنه يهودي، لكني قلت لها: ربي يرحمو فربنا واحد أحد.

قالت: آمين، بحرقة شديدة، وهي تمسح دموعها لتُضيف أنه ترك لك هذا المكتوب، سلَّمته لي و انصرفت بسرعة دون أن

تلقي عليَّ السلام.

كان ريمون يوصيني بابنته خيرًا ويحذرني من بن زحواط فهو لن يتورع عن بيعها في سوق النخاسة، وأضاف أن هذا الأخير لا يزال على عهده فيما يخص الكَنز ويطلُب مني أن لا أنسى أفضاله عليَّ بما أنه دَفعَ نظير أن أُصبح دايًا أموالًا طائلة لأعضاء من الديوان حتى يقبلوا بي بينهم، فحتى العقل لا يقبل أن يكون غسالًا للموتى حاكمًا على الدزاير المحروسة، كنتُ أبحثُ عنها عند الانتهاء من قراءة المكتوب، فلم تترك اسمها ولا حتى عنوانها وحتى شكلها لا أعرفه، قلت: ربي يهدي ما خلق، ويسترنا من اليهود ودسائسهم، ورحتُ أُفكر في ريمون المسكين، مات دون أن يترك شيئًا لإعالة ابنته.

ألقيتُ نظري من النافذة أُتابع خطواتها وهي تنزلق بين الأزقة من قامتها وقدها وهي تتمايل، كنتُ أتخيلها جميلة، نظرت في الأفق وإذا بشهاب ثاقب يسير ليس بعيدًا عن القمر الذي اكتمل جماله بما أنه كان بدرًا، دعوت الحكواتي الخاص بالقصر، قلتُ له: إني كرهت كل قصص ألف ليلة وليلة التي تحكيها عن ظهر قلب دون تشويق وتنميق، أريدُ قصة جديدة وإذا لم تجد فإن دخلت إلى القصر على رجليك، لا أضمن أنك تعود راجلًا إلى بيتك و إنما على نعش إلى القطار.

قال: هل سمعت بقصة سيدي عطالله؟ هي قصة حدثت

في قصر مثل هذا وفي الأغواط بالتحديد، كانت الأميرة معزوزة بنت الباي حاكم الجزائر في القرن السادس عشر، قُرَّةَ عين السلطان وعلى قدر هائل من الرقة والجمال وهي أجمل من خداوج العمية على عصرنا، اختطفها فرسان من مالطا عندما كانت صبية في عُمر الزهور، أثناء عملية قرصنة خاطفة على أحد شواطئ مدينة الجزائر، حيث كانت تلهو وتمرح، فَحَزِن عليها الباي شعبان كثيرًا وفاوَضَ الأمم المتوسطية المسيحية من أجل استرجاعها إلى القصر وعَرضَ على فرسان مالطا الهدايا والأموال والكَنز، لكن دون جدوى.

في يوم من الأيام جمع رجال الدولة والحُكماء والصلاح ليستشيرهم في أمر الأميرة، فصارحوه جميعًا وهم في حرج كبير بعجزهم عن إيجاد مخرج لهذه الورطة، من بين الحضور كان يوجد أحد أشهر مشايخ الأغواط وهو سيدي عطالله الذي التزم الصمت أثناء هذا اللقاء، لكن عندما حط الليل رحاله في المدينة المحروسة، ذهب الشيخ إلى مالطا على متن حصان طائر وتناوش مع الحراس وقتلهم ودَخَل القصر الذي كانت به معزوزة الأميرة وأرجعها إلى قصر الجنينة بسلام ثم توجه إلى الأغواط في اليوم نفسه.

في الصباح الموالي تفقد السلطان القصر وهو يتتبع عطر ابنته المعزوزة بين ثناياه حتى وجدها ملقاة على فراشها وتغط في نوم عميق، فأيقظها فرِحًا بعودتها، وسُرَّت المدينة بهذا الخبر

السعيد، لكن السلطان أصر على معرفة هذا البطل الذي فعل ما لم يفعله الأمراء والحُكماء، وذات يوم كان الشيخ بن عطالله في القصر لزيارة أحد البايات فشاهدته الأميرة وتعرفت عليه وفرح السلطان بالاكتشاف ففرح به وأكرم مثواه وأعفاه من دفع الضرائب، فأصبح الشيخ من وجهاء المدينة وأحد أوليائها إلى اليوم.

عندما أنهى الحكواتي قصته كنتُ أغطُ في النوم، وتمنيت لو أني أستطيع الانتقال من المحروسة إلى إسطنبول وأكون سلطانًا للعالم ليوم واحد، فقد انفتحت شهيَتي للحُكم والسُلطة.

في اليوم الموالي استيقظتُ على صَوتِ الخادم يوقظُني ويقول لقد عادت تلك المرأة التي كانت هُنا البارحة، دائمًا تأتي عندما يكون الواحد نعسانًا فأنا أُصبح مُعَكَّر المزاج ولا أُحب الحديث مع أحد، قلت للخادم: اعتذر لها وقل لها تعود في المساء.

لقد أرسلتُ ثلاث سفن منذ تولي الحكم إلى تونس، لتأديب حمودة باشا، كما أني أرسلت في ذلك الوقت هديةً إلى الأستانه حتى أحوز على فرمان التعيين، وأنا أفكر في ذلك، أخبرني الخزناجي أنه ينبغي إرسال الهدية إلى السلطان محمود الثاني حتى نحصُل على فَرَمان التعيين ومعه عمامة السلطان وسيف غمده مرصع بالذهب والفضة وبه بعض الأحجار الكريمة،

خاصةً بعدما أرسَل السلطان رسالة يحثني فيها على نسيان الأحقاد والضغائن تجاه حمودة باشا، ومن الواجِب توحيد الجهود تجاه الكفار من الدول المسيحية، خاصةً وأن الأستانه تُحارب القيصر في الشرق وتواجه أوروبا من الغرب، وبدأت تفقد مصر أم الدنيا، قال الخزناجي وهو يقرأ الرسالة: إنه علينا الإذعان للسلطان، خاصة وأن الأسطول الجزائري لم ينجح في تأديب الباشا التونسي، رغم الحملات المتوالية.

في المساء تَسَمَّر الحاجب عند الباب معلنًا أن المرأة إياها جاءت وتطلب الدخول، قلت له: هذه لا تعرف التقاليد هنا، فالمرأة لا تخرج في المساء، هز الحاجب رأسه دون أن ينبس ببنة شفة، دخلت وكانت ترتدي الزي نفسه، فقلت لها: بدايةً ما اسمك يا بنت صديقي المرحوم ريمون؟ فقالت: افلين، قلت: لقد هربتي البارحة ولم نتحدث مطولًا، قالت: البارحة كان يوم سبت واضطررت للخروج إلى المعبد من أجل الصلاة، وأضافت أن الإنسان لا يسمو إلا بعلاقته مع ربه، وهي تتحدث بدأت تخلع نقابها دون سابق إنذار، نَزَعت خمارها وكان شعرها كحبات السنابل، أصفر فاقع، وبدأت تُحرك شعرها حتى حط كاملًا على كتفيها، وكشفت عن وجهها، عيناها خضراوان، وعلى خدودها كأن بها رشة من القرفة، شفتيها صغيرتان كحبات الكرز، لم أفهم ما تريد، هل تريد إغرائي بهذه الحركات النسائية، سحبتُ نفسي بخطوتين إلى الوراء و أنا أقول: ما هذا الجمال يا بنت ريمون؟ هممتُ بالخروج، كنت أنتظر أن أجد

نساء المدينة يُقَطِعنَ أيديهن، بل يندبن وجوههن من دماثتي، لقد فهمتُ ما تُريد وكانت عارفة ما تريد، قلتُ لها: أنا الآن داي الجزائر، قالت: أترك عليك هذا الحديث، فالكل يعرف من أنت، أنت غسال الموتى، غسال التشوالق، المُدمن الصعلوك، السِكّير، الوقح العربيد المُتعَجرِف، قلتُ لها: من تريد رجلًا لا تَذكُر مساوئه أمامه، ولم أدر لِمَ لَم أصفعها، ربما لأن جمالها أخَّاذ ولا يوجد له في المدينة والأيالة، بل في السلطنة كلها مثيل.

لقد أحضَرَت معها كل شيء، السِوَاك للزينة والعِطر الصقلي، وجميع أنواع المكسَّرات لوز وجوز وفول سوداني وبُندُق، والعسل، و إبريق من الشاي الأحمر، وَدَعَت نفسها على مائدتي كأنها صاحبة البيت، قالت: السهرة طويلة، وسَحبَتني إليها وأصبحنا كجسد واحد، تَلُفنا السماء بردائها وتَحملنا نسائم الليل إلى النشوة والرغبة والشبق، لقد حلَّت بأيديها كل عقدي التي كان قد فتحها الكياس المشؤوم ذات يوم في حمام المزيرية، فَشَتَّان بين اليدين، طلبتُ وقتًا مُستقطعًا وألقيتُ جسدي في الفراش وغفوت هنيهة وأنا في غاية السعادة، السعادة التي بحثتُ عنها بين يدي الجنية السوداء وإذا بها كمين مُتَنقِل في أزقة القصبة.

لم يكن يهمني أين راحت و أين انصرفت، استسلمتُ للنوم العميق، وعِندَ الصباح وجدتُ قصاصة من جريد على فراشي، تقول فيها: «شكرا، ستكون لنا ليالي مثلها فانتظرني»، لم أفهم

ماذا حدث وماذا وَضَعَت في الشاي حتى أَستغرِق كل هذا الوقت في النوم، تفقدتُ بعض الأغراض في الغرفة، هممت مسرعًا إلى مفتاح الخزنة وجدته تحت قطعة من الزليج ملفوفًا بالمنديل كالمعتاد، ولم أُفكر أنها أخذته عندما طلبتُ وقتًا مستقطعًا من أجل أن تصنع نسخة مشابهة له وهي المعلومة التي عرفتها لاحقًا، ظللتُ أيامًا أنتظر عودتها إلى القصر، كنتُ أتساءل أين تبيت، هل هي جِن أم من الإنس، أم الاثنين معًا، فهي المرة الأولى التي أصِل فيها إلى هذه الدرجة من النشوة العارمة، حتى أنني لما عُينت دايًا لم أشعر بمثلها.

بعد أكثر من لقاء، كثُر الحديث في القصر عن المرأة التي تأتي للداي، حتى أن أفندينا جاءني قائلًا إذا فُتِنتُم فاستتروا، يا مولانا الكل يتحدث عن تلك المرأة و أنت داي المحروسة ويجب عليك أن تتزوج وتكون في الحلال قطعًا لكل لسان، لقد خرقتَ التقاليد ولم تتزوج قبل تعيينك، يجب المسارعة في ذلك حتى لا تصل أخبارنا إلى السلطان في الأستانة فيأمر بعزلك أو قطع رأسك.

أدرتُ كلام أفندينا في رأسي من كل جانب، وقررتُ عدم استقبال ابنة ريمون إفلين في القصر، فهي تجلب لي العاروتُريد تلطيخ ما بقي من سمعتي بين الناس.

في المساء أمرت الحاجب بعدم إدخالها مرة ثانية، و أنا

آمره شاهدتُ حمامة في نافذتي، تحمل رسالة منها تقول فيها إنها سمعت ما يدور من كلام حولنا، وإذا كنت أريد الوصل بها تعالى بعد المغرب في بيت يوجد بين المعبد والمقبرة اليهودية، بيت مصبوغ بالأزرق وهو الوحيد في ذلك الزُقاق، انتابني شيئ من الذُهول من أين سَمِعَت كلام الناس، كانت لدي رغبة جامحة في رؤيتها مجددًا، لكن كان عليَّ إعادة الاعتبار لنفسي بين الرعية والخلق، بعد مُهلة من التفكير فكرتُ في التنكر لألقاها في الموعد.

كنتُ أعلم أن كوجق مغتاظ من أدائي في الشهرين الأولين، فقد قيل له «أنتَ كنتَ وراء اقتراح الغسال» وعليكَ إرجاعه إلى الصواب بالطريقة التي يراها مناسبة، فقد كانت الأيالة في حالة من التسيب والإهمال.. المنطق السائد هو «دعها فإنها مأمورة» أو «للقصبة رب يحميها»، فالإنكشاريون استولوا على العديد من العقارات، والأئمة منغمسون في رد ادعاءات بن الأحرش والزردات والهردات في الأضرحة.

في الأخير قررتُ أن أذهب للموعد، لكن متنكرًا في زي يهودي بقميص وبرنوس أسودين وطاقية، وكانت لحيتي السوداء وشعري الطويل المنكوش يعطي الانطباع بأني يهودي ابن يهودي، وعند البيت طرقتُ ثلاثَ طرقات مثلما أوصتني أفلين، كان عليَّ الدخول من البيت الخلفي حتى لا أجلب انتباه أحد، استقبلتني إفلين بقبلتين على السريع، قالت إن هناك ضيوفًا

أعرفهم جد المعرفة، وتفاهمتُ معها على أن لا تكشف هويتي وتقول لهم هذا ابن أخ المرحوم ريمون وجئت من صقيلية، كانت هناك طاولة طويلة فيها مختلف الأكلات والحلويات، طيور وخرفان صغيرة مشوية و أباريق من شاي وخمر من مختلف الأشكال، كان الداي نفسه جاء للعشاء، بدأت تعرفني بضيوفها واحدا بواحد بن زحواط اليهودي، وإخوة بكري وبوشناق وبوشعرة التاجر الكبير والعديد من القناصل، جاؤوا يحتفلون بعاشوراء وهو يوم عيد عند كل الديانات، وفي الجهة المقابلة كان جُل أعضاء الديوان والوزراء، هنا الخزناجي وخوجة الخيل وخوجة الحرج والكاهية، لم يكن هناك إلا أفندينا فمثل هده المجالس لا بد أنها كانت ستُخرجه من الملة، لقد كان مشغولًا بتوزيع العشور على مستحقيها من الفقراء والمعوزين والعاملين عليها عند مسجد علي بتشين، وعند ضريح الثعالبي سلاك الحاصلين تقام وليمةً كبيرةً يحضُرها العبيد والمُطَلَّقات واليتامى والأرامل، بينما أنا متنكر بين الديوان والوزراء عند اليهودي بن زحواط، بعد العَشاء، كل واحد من الضيوف اتخذ مكانه في أريكة فاخرة مطرزة بأحجار وخيوط ذهبية، شَرَعَت فرقة موسيقية تعزِف الموشَّحات الأندلسية، بعض الوزراء أضحى يتر اقص في مجلسه من الغناء وتأثير الخمر والعفيون المُذاب في الشاي والقهوة، حتى دَخَلَت بعض الر اقصات، كن يترقصن ويتقربن عمدًا من الوزراء ويكشفن عن مفاتنهن، وبمناديلهن المتدلية مع الموسيقى الناعسة، كان الواحد منهم يرمي قطعًا ذهبية وأوقيات وأكياسًا من النقود تتسرب

إلى أيدي الر اقصات، وكانت افلين ترقبني وتضحك ضحكة «قارصة» وكأنها تريد القول ها هم وزرائك عراة وسكر انين، ها هم من يحمون الحِمى ويحمون المحروسة، هؤلاء من يُعَوّل عليهم السلطان الأعظم في مجابهة أعدائهم المسيحيين، طلبتُ الانصراف وشكرتها على العَشاء المسموم الذي كشف عورات الديوان أمام عيني، دخلتُ إلى القصر مسطول من أكواب الخمر والشاي بالعفيون و أنا بين السماء والأرض، أردتُ أن أستجِم حتى أُعيد بعض صو ابي و أفكر في ما جرى اليوم، فهمت أن للوزراء ألف وجه، حتى وإن كانوا لا يفقهون في مهامهم الوزارية، فإن ذلك لم يمنعهم من ربط علاقات مع اليهود والأجانب وكبار التجار، فَهَمهُم الوحيد هو جمع المال و اكتناز الثروة وآخر اهتماماتهم هم الرعية.

في الصباح، عقدتُ لقاءًا مستعجلًا مع كوجق فقلت له: إني أريد تغيير الوزراء بآخرين، لكن هذه المرة سأتخلى عن الجز ائريين وسيكونون من الأتراك، علاوة على رفع أُجرة الجند، و إقالة الر ايس حميدو بعدما فشل في تأديب باشا تونس، فو افقني في طرحي للأمورولم أخبره عن العَشاء الفاخر عند اليهودي مع الوزراء.. و اتفقنا على إخبار القادة الأتراك بالقرارات، على أن نُبقي على الديوان كما هو ويتم تغيير الوزراء فقط واستثناء أفندينا من الإقالة، فهو إنسان شريف وقيمته كبيرة.

بعد شهرين من الحُكم، بدأتُ أفهم إلى حد ما سياسة الديوان والأيالة والرعية، والتزمت بأن لا تزورني إفلين وحين أريد زيارتها سأخبرها بطريقتي الخاصة، كانت قراراتي صادمة للبعض وقد اتفقوا أن يترصدوا أخطائي في الحُكم وتَصَيُد كل شاردة لإيقاعي في شِبَاكِهِم، تارة الإنسان يكون كالمغشي عليه، إلهه هواه وأمره فُرُطًا، يَتبع شهوته وفي نفسه دعوات مؤجلة للتوبة وتسويف غير مبرر، هكذا كان حالي مع افلين بنت ريمون، لقد أعطيتُ الوعد لأفندينا بأن أقُص كل لسان يصلني ويصلها بسوء، فقد كثُر كلام المرجفين في المدينة وما أكثر السماعين لهم، بأن الداي سيتزوج من يهودية، وأن بن زحواط هو من يُخطط لذلك حتى يستفرد بالأيالة.

كنتُ دائمًا أُشكِك في أفكاري التي تأتيني من أجل ملاقاة إفلين، هل هي لي أم لشيطاني المتلبس بي، ولماذا لا تأتيني مثل هذه الأفكار أو أحسن منها في الحكم والتسيير، فقد راودتني فكرة أن ألتقيها على أنها من الوفد القادم لتقديم الدنوش مع باي الغرب أو الشرق، على أن أشتري صمت هؤلاء بتعيين أقربائهم في أي منصب شاؤوا، المهم أن ألتقيها، وهكذا توالت لقاءاتنا الحميمية، لكن الشيء الغريب أن شيطاني أمرني أن أتتبع إفلين وأن أُظهر لها أني نائم عندما تطلب وقتًا مستقطعًا، اليهودية الخبيثة كانت كل يوم تأخذ قِطَعًا من المجوهرات والزُمُرد والفيروز من الكَنز المُخبأ بإحكام في إحدى الحجرات، مشيت أتتبعها على أخمص قدمي، كانت تحمل مصباحًا نوره

خافت نوعًا ما حتى لا توقظ الحَرَس وبينما كانت تهم بفتح باب الحجرة، فاجأتها بوضع يدي على فمها وإدخالها عنوة للحجرة، كانت ليلة سقوط الأقنعة، ظلت تراودني طوال شهرين من أجل أن تستحوذ على مجوهرات الكَنز، أمرتُ الحرس بإخراجها ووضعها في الأسر إلى غاية النَظَر في أمرها، في اليوم الموالي جاءني باكرًا أعضاء من الديوان يطالبون بالزيادة في الأجر، وقالوا إن كثيرًا من الجُند سمعوا بقصة المرأة اليهودية وإسر افك عليها من الخزنة.

استدعيتُ الخزناجي على الفور وأمرته بزيادة أجور الجنود من أجل لملمة الفضيحة واسترضاء للإنكشاريين، فأكثر الأشياء التي تستهويهم هي رفع أجورهم، وتسهيمهم أراض جديدة لبناء قصور لأبنائهم. كما أني أمرتُ بإطلاق سراح إفلين ووضعها في أقرب سفينة متجهة إلى صقلية.

لم تكن هذه القرارات لتشفع لي، فقد التقى أعضاء من الديوان بكوجق واشتكوا من اختياراته، وطالبوا بالتغيير، وبإعادة حساب الأموال بالخزنة وكان معهم بيت المالجي الذي و افقهم في الرأي، وقال إن الخزينة أضحت فارغة، ولا تسد قرار رفع الأجور، فتلك اليهودية أخذت ما يكفيها وزيادة.

جاءني بن زحواط شخصيًا، أصبح هَرِمًا ولحيته بيضاء، ونفس الشعيرات المتدلية من أذنيه وظهره المتقوص وقد فَقَدَ

حُمرَة وجهه، سألني عن إفلين بنت ريمون، فقد وصلته أخبار أني وضعتها في الأسر الخاص، فقال إنه كلفها بعدما فشل أبوها في الحصول عن معلومات عن الكنز، لكنها تمردت عليه بعدما لاحظت المعاملة السيئة التي كان يتلقاها مني والدها، قال: سمعتُ أنها كانت تأتيك وقد سَرَقَت منك بعض المجوهرات والأحجار الكريمة، قلتُ له: إن كانت لديك كل هذه المعلومات لماذا أتعبت نفسك وجئت لملاقاتي؟ قال: كما ترى فأنا شيخ هَرِم وسأعود من حيث أتيت إلى ليفورنو، دون أن أتمكن من الوصول إلى الكَنز، لكني أعدك - يقول - سيكون رأسك عربون ومفتاح للوصول إلى الكَنزوسأدفع الثمن غاليًا، فَأغضَبَني هذا الكلام، فأمرت الخَدَم بإخراجه فورًا من القصر.

كانت لليهود تقاليد خاصة، يهاجرون من بلدانهم الأصلية إلى مدينة الجزائر أو تلمسان أو وهران فيعيثون فيها فسادًا وينشرون الفتنة في أهلها، ويعودون إلى مسقط رأسهم ليموتوا هناك في مقابرهم بين ذويهم وأهلهم، لقد تَأخَرَت السفينة التي كانت ستقل إيفلين إلى صقلية وبن زحواط إلى ليفورنا يومين للوصول إلى ميناء الجزائر، فراحا في نفس السفينة، ولستُ أدري إن التقيا هناك وكم تمنيت لو أن السفينة غرقت فأتخلص من خبث بن زحواط وإغراء إفلين.

آه من إفلين.. وصلتني للتو رسالة عبر ميدو الطائر الزاجل المفضل لدي.. رسالة من إفلين تخبرني فيها أن عاصفة فيها

رعد وبرق ورياح عاتية، كان ضحيتها بن زحواط الذي سقط في البحر بعدما خرج إلى سطح السفينة لإدخال بعض الصناديق التي حملها من ميناء الجزائر وهو يأمر خدمه بالإسراع في إدخالها، حتى صدمته موجة عاتية وعالية أردته غريقًا ولم يتمكن البحارة من انتشال جثته، وتقول إفلين إنها بوقاة بن زحواط الشيخ الذي كان يرعاها، لم يعد لها مقام في ليفورنو وقررت العودة إلى المحروسة، خاصة أنها تحمل بين أحشائها جنين وريث العرش وولي العهد..

تفاجأتُ بالرسالة، خاصة أن كل الأطباء والدراويش الذين زرتهم في عشر سنوات ألف مرة أو أكثر أكدوا لي أني رجل عقيم، وقالي لي أحدهم أني لا أستطيع الإنجاب، فلا زيارات عبد الرحمان الثعالبي ولا خلطة ابن العتقي ولا ماء الباهان والجنية استطاعوا فك الرباط معي إلا إفلين اليهودية، فكرتُ ألف مرة، كيف سأقول للعالم ولأفندينا أنه سيكون لي ولد من جلسة محرمة مع جارية يهودية، تذكرتُ الحديث النبوي القائل إن العرق دساس.. ابن حرام ينجب ابن حرام هي سُنَّة الحياة وقاعدته.. إفلين قُرَّة عيني ستكون في بيت السلطان وعليَّ استقبالها أحسن استقبال بعد أقل من شهر من الآن، فقد أخبَرَتني أنها أبلَغَت عائلة بن زحواط بالحادث الذي حدث معها في عرض البحر وستعود إلى الجزائر في أول مركب يمكنها أن تركبه، لكنها اشتكت من أحد البحارة، كان يعُد لها أنفاسها ويبعث كل يوم رسالة لم تكن تدري أنها موجهة إلى صديقي

كوجق، ولم تكن تدري أن البحارة وجدوا في رحل بن زحواط كتابًا خاصًا بحياته، فيه أدق التفاصيل عن تجنيد إفلين للإطاحة بي في شركها، للوصول إلى مكان الكَنز، دون الاستعانة ببعض العرَّافين الذين حاولوا مرارًا باستعمال العقارب والثعابين تارة وتارة أخرى بمادة الزئبق، فقد كان يكفيهم الوصول إلى فراشي للوصول إلى مبتغاهم القديم. كما أن بن زحواط كان يُخطِط إلى أبعد من ذلك، و أبعد من تفكير سُكان الأيالة والمحروسة مجتمعين، فقد كانت له علاقات حميمية مع القصرين، قصر الجزائر وقصر الاليزيه، وَوَعْدُ نابليون بإنشاء وطن لليهود في أرض فلسطين لا يزال طازجًا، فلهذا رمى اليهود بثقلهم في حملة الرجل القصير على مصر، وكان المخُطَط هو أن يستفيد اليهود من خزنة الداي لإقامة دولتهم في فلسطين، وبالتالي عائدات جهاد الجزائريين والأتراك طيلة خمسة قرون، يذهب بجرة قلم من بن زحواط وقُبلَة وليلة مع إفلين الصقلية، وكان للجنين الذي تحمله في أحشائها دورٌ رئيسي في المُخَطَط، حيث يكون وريثًا للعرش حاملًا لدماء بني إسرائيل وآخر جزائري؟

لما وقع كتاب بن زحواط بين يدي صديقي كوجق الجندي التركي، ما وجد من سبيل غير جمع الانكشاريين أعضاء الديوان، لإخبارهم بالمخطط الذي يعمل لتنفيذه يهد الجزائر بالتنسيق مع يهود ورجال أعمال في قصر فرساي هناك في باريس، لم يدُم اللقاء طويلًا، كانت التُهمة جاهزة وهي الخيانة العظمى التي

تعني الإعدام وقطع الرأس.

في ليلة الثلاثاء وهو اليوم الذي يُسمح للداي أن يغادر القصر، عاودني ذلك المنام الرهيب، رأسي يتطاير في سيدي منصور، وقد تحول البحر إلى موج من الدماء، وجثث في كل مكان، استيقظتُ مفزوعًا، وقد عزمتُ على لقاء إفلين وهو يوم عودتها من صقلية، بحسب آخر رسالة وصلتني منها، لم أَدرِ كيف لَبستُ ملابسي ووضعتُ بعض العطر، وفضلتُ الانسحاب من القصر دون حراسة إلى الميناء، أنتظرُحب حياتي وولي العهد الذي سيحمل اسمي واسم الدولة التي كنتُ أحكم فيها دون أن تكون لي كلمة بين الجنود والوزراء أو الديوان، كلٌ في رأسه دولة والسلام، لم تعد تهمني إلا إفلين و ابني وفقط.

و أنا أسير نحو مُنحدر إلى الميناء، كانت المقاهي مغلقة على غير العادة، والمارة تكاد حركتهم متثاقلة، إلا من المُصلين الذين خرجوا لتوهم من المسجد، ودقات النحاسين تبدو خافتة في ذلك الزقاق.

في القصر كان الجو مختلفًا، الحركة فيه تكاد منعدمة، إهمال مُطبِق، الكل يراقب الآخر، حتى إذا لم يجد أحدًا ينصرف إلى أهله أوشغله، وفي هذه الأثناء دخل شخص مجهول يُدعى علي باشا فجلس في مكاني ونادى في الخدم والحشم، أن يبايعوه على السمع والطاعة، وضرب المدفع ثلاث طلقات كانت

كافية ليجتمع أفندينا ومجموعة من أعضاء الديوان ليُقَدِمُوا البيعة دون اعتراض.

بعث الداي علي إلى كُبَرَاء القشلات بأن يغلقوا أبوابها بعد صلاة المغرب وأمر أن يُحضِروا أربعمائة بغل وإدخالها إلى دار المُلك وعندما أغلقوا الباب، أَمَر المماليك والعبيد والعسكر والخدم الذين معه أن يحملوا كلهم سلاح الدب ويتهيأوا، وأَمَرَهُم بعدما فتح الخزنة أن يحملوا على البغال ما بها من ذهب، ففعلوا ما أمرهم وحملوا كل ذلك على أربعمائة بغل وحملوا كذلك ما بقي من المال والسلاح المحجر والأثاث الثمين وأواني الذهب والفراش، ثم أمر بفتح باب الملك ونادى أهل البلد من المسجد بعدما أمرهم أن يصلوا صلاة المغرب بجامع السيدة الملاصق لدار الملك ويبقون هناك إلى أن يأتيهم أمره.

وكانوا في قلق فدخلوا دار الإمارة وأغلقوا الباب من ورائهم، ثم كَلَّمهم وقال لهم: إني أريد أن أنتقل إلى القصبة وأسكن بها لأجل أن نتقطع فتنة السكر ويتهنى جميع الناس، وقد بعثت لكم لكي تعينوني في هذه الليلة وتكون لكم عندي حظوة كبيرة فأجابوا بالسمع والطاعة، فأمرهم بحمل السلاح من الذهب والفضة، وأعطاهم الشمع وأمرهم بأن توقد شَمعة بيد كل إنسان وأن يحملوا ما قدروا عليه من المال والأثاث، خلاف المال الذي على البغال، فلما أتم ذلك أمر بقطع الساري الذي يحمل السنجاق، العلم فوق دار الملك فقطعوه، ثم أخرج جميع

الناس والبغال حتى لم يبقَ بها أحد، ثم خرج بأهله وأغلق الباب فقَدِم بعض الناس بالسلاح وتأخر هو بنصف الناس، وذهبوا للقصبة فلما صلى صُبح يوم السبت أمر بالسنجاق فعُلِّق على باب القصبة، كما هي عادة دار الملك وأطلق خمسة مدافع.

في الميناء كانت الأمواج متلاطمة والسفينة التي تُقل إفلين وولي العهد، لم تتمكن من الرسو، وعندما استقامت في المرفأ اخترق سهم مجهول المصدر بطن إفلين وهي تصرخ بكل جهدها وتبكي حزنًا على موت جنينها، قبل أن تستسلم لقدرها المحتوم. ظللتُ مشدوهًا وقد تسمرت قدماي في أرض الميناء، فقدت على إثرها توازني و أنا أهم بالسقوط على الأرض.

تقدم جنود بأمر من صديقي كوجق، فاستلوا سيوفهم ومثلما قتلنا الداي أحمد ومصطفى وبالطريقة نفسها، كانت نهايتي فتطاير رأسي متدحرجًا إلى أن وصل جثة إفلين وانهارت جثتي أرضًا وأنهت أيامي ورأسي عُلِّق في سور سيدي منصور في المكان نفسه الذي عُلِّقت فيه رؤوس السابقين الداي مصطفى والداي أحمد.

تمـــت

المحتـــــوى

الإهداء ٣

منام ميت..... ٥

ليلة المعركة..... ١٦

فى مقبرة اليهود..... ٢٤

حميدو وماما بينات..... ٣٥

الثورة ضد اليهود..... ٤٦

الماء بدل البارود..... ٤٩

الغسال في القصر..... ٦١

بيتان يفك شفرة الكنز..... ٨٧

الكنز المثقوب..... ١٠٥

ماســـتر©